عناية القرآن الكريم
بتحقيق مقصد حفظ الدين

د٠ محمد بن عبدالعزيز الصعب (*)

المقدمة :

الحمد لله رب العالمين وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله صلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله وصحبه والتابعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد:

فإن (حفظ الدين) أعظم المقاصد التي جاءت بها الشريعة الإسلامية الغراء، وهذا إن كان يعني –فيما يعنيه– أن الأحكام التشريعية جاءت لترعى هذا المقصد وتعمل على تحقيقه، فإنه يعني أيضا أن نصوص الوحي اعتبرت هذا المعنى في أعلى درجات الاعتبار: من حيث تقريره، وبيان مكانته، وتربية النفوس على البذل له، وخطر التهاون في واجبه، وسد الأبواب والذرائع المفضية إلى تضييع شيء منه.

ولقد أنعم الله على عباده بكمال هذا الدين، وعدّه من أتم النعم، ويكفي أنه رضيه دينا لأمته التي اصطفاها واختارها خير الأمم، كما قال سبحانه: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٣]. عن طارق بن شهاب، أن اليهود قالوا لعمر رضي الله عنه: إنكم تقرؤون آية، لو أنزلت فينا لاتخذنا ذلك اليوم عيدًا، فقال لهم: إني لأعلم حيث أنزلت، وأي يوم أنزلت، وأين رسول الله ﷺ حيث أنزلت: "نزلت ليلة جمع، ونحن مع رسول الله ﷺ بعرفات (١).

(*) الأستاذ المساعد بكلية القرآن الكريم والدراسات الإسلامية – جامعة جدة.

(١) خرجه الإمام مسلم في صحيحه (٢٣١٢/٤) (ر ٣٠١٧).

وفي هذا البحث دراسة موضوعية استقرائية قرآنية، تستهدف تجلية تلك العناية العظيمة لكتاب الله تعالى بتحقيق مقصد حفظ الدين، لتعبّر عنها في معالم رئيسة سبعة، يندرج تحت كل واحدة منها من القضايا والشواهد ما يؤكد المعنى المراد في كل معلم منها، كما أنه – أي هذا البحث– أخذ على عاتقه الإفادة –ما استطاع– من تراث المفسرين رحمهم الله، والذي يمتلئ بالنفائس من علم وحكمة واستنباط تفرعت عن عنايتهم بتفسير آيات القرآن، وسعى هذا البحث لأن يستخرجها ويضعها في سياقات تعضّد المعاني المرادة وتضفي على شواهدها القرآنية كثيراً من العلم النافع الذي يتفرع عنها ويستنبط منها، أسأله تعالى أن يجزي جميعهم عنا وعن الإسلام والقرآن والمسلمين خير الجزاء وأوفاه.

ولقد بني هذا البحث –بعد هذه المقدمة– على تمهيد يتحدث عن مقصد (حفظ الدين) كأحد المقاصد الضرورية الخمسة للشريعة –كما قرر ذلك أهل العلم وفقهم الله– ومكانته في مقاصد الشريعة الإسلامية.

ثم تأتي تلك المعالم التي افترضها البحث لتعبر بمجموعها عن عناية القرآن الكريم بمقصد حفظ الدين، جاعلاً كل معلم منها عنواناً لمبحث من المباحث السبعة لهذا البحث، ولقد كانت كما يأتي:

- **المبحث الأول:** تقرير القرآن بأنَّ الدين عند الله الإسلام وأنه دين التوحيد الذي جاء به سائر الرسل عليهم السلام
- **المبحث الثاني:** ترسيخ الولاء لله ورسوله والمؤمنين والبراء مما سوى ذلك من مناهج الكفر كلها
- **المبحث الثالث:** تحذير المؤمنين من خطر المنافقين وتعميق الوعي بأساليب كيدهم والحث على جهادهم بالعلم والبيان
- **المبحث الرابع:** الأمر بالاتباع والتسليم والتحاكم إلى الوحي المطهر والتحذير من التفرق والابتداع ومفارقة جماعة المسلمين

- **المبحث الخامس:** تشريع عبوديات نصرة الدين وإقامة رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر
- **المبحث السادس:** بيان الحقائق والسنن التي تقرر ارتباط حسن الحال وجميل العاقبة والمآل للأفراد والأمم بالإيمان والتقوى
- **المبحث السابع:** تعظيم واجب أهل العلم المبلغين عن الله ورسوله، وتحذيرهم من كتمان الحق أو لبسه بباطل

ثم في نهاية البحث، جاءت خاتمته المعبّرة عن أهم نتائجه. ثم ثبت مراجعه، وقائمة محتوياته.

أسأل الله تعالى بكرمه أن يجعل هذا العمل خادماً لكتابه العزيز، وأن يغفر عن كل زلل أو خطأ أو تقصير، وأن يمنّ علينا ببركة الاهتداء بالقرآن العظيم، فهو النور الذي يخرج الله به عباده من الظلمات إلى النور ويهديهم إلى صراط مستقيم، والحمد لله أولا وآخراً.

التمهيد

مقصد حفظ الدين ومكانته في مقاصد الشريعة الإسلامية

جاءت شريعة الإسلام لجلب المصالح وتكميلها ودرء المفاسد وتقليلها، كما نص على هذا علماء الأمة في القديم والحديث. ولقد جعل العلماء هذه المصالح على ثلاث رتب: ضرورية وحاجية وتحسينية [(١)]، وهي بمجموعها تحقق مقاصد الشريعة الإسلامية الغراء[(٢)].

---

(١) ومن أشهر من قال بهذا التقسيم وقعّد له الإمام أبو حامد الغزالي ، حيث قال في شفاء الغليل (ص١٦٩):" ما لا يرجع إلى ضرورة ولا إلى حاجة، ولكن يقع موقع التحسين والتزيين والتوسعة والتيسير للمزايا والمراتب ورعاية أحسن المناهج في العبادات والمعاملات والحمل على مكارم الأخلاق ومحاسن العادات". وينظر في مزيد إيضاح هذا التقسيم: المستصفى للغزالي (٢٨٤/١)، ومقاصد الشريعة الإسلامية للطاهر ابن عاشور (٢٣٢/٣)، ومذكرة أصول الفقه للشيخ محمد الأمين الشنقيطي (ص٢٠٣).

(٢) عرف العلماء مقاصد الشريعة بتعريفات كثيرة، وكانت للمتأخرين عناية بتحرير تعريفها أكثر من المتقدمين، ومن أفضل ما عُرّفت به ما قاله العلامة الطاهر ابن عاشور بأنها: "المباني والحِكَم الملحوظة للشارع في جميع أحوال التشريع أو معظمها؛ بحيث لا تختص ملاحظتها بالكون في نوع خاص من أحكام الشريعة، فيدخل في هذا أوصاف الشريعة وغاياتها العامة والمعاني التي لا يخلو التشريع عن ملاحظتها ... ويدخل في هذا معان من الحكم ليست ملحوظة في سائر أنواع الأحكام؛ ولكنها ملحوظة في أنواع كثيرة منه". (مقاصد الشريعة لابن عاشور، ص٥١). كما عرفها –بإيجاز– الدكتور مصطفى بن كرامة الله مخدوم بقوله: "المقاصد هي المصالح التي قصدها الشارع بتشريع الأحكام" (قواعد الوسائل في الشريعة الإسلامية، ص٣٤).

أما الدكتور محمد بن سعد اليوبي فقد قال: "المقاصد هي المعاني والحكم ونحوها التي راعاها الشارع في التشريع عموما وخصوصًا من أجل تحقيق مصالح العباد" (مقاصد الشريعة الإسلامية وعلاقتها بالأدلة الشرعية، ص٣٧).

وعليه، فإن أعلى درجات المصالح التي قصدت الشريعة الغراء تحقيقها ما عرف عند أهل العلم بالمقاصد الضرورية الخمس، وهي كما قال الإمام الشاطبي: "ما لا بد منه في قيام مصالح الدين والدنيا، بحيث إذا فقدت لم تجر مصالح الدنيا على استقامة، بل على فساد وتهارج، وفوت الحياة أصلاً" (١)

قال الإمام الشاطبي رحمه الله: "اتفقت الأمة بل سائر الملل على أن الشريعة وضعت للمحافظة على هذه الضروريات الخمس، وهي: الدين، والنفس، والنسل، والمال، والعقل"(٢). وقال العلامة ابن الحاجب: "والمقاصد ضربان: ضروري في أصله، وهي أعلى المراتب كالخمسة التي روعيت في كل ملة: حفظ الدين والنفس والعقل والنسل والمال. وغير ضروري، وهو ما تدعو الحاجة إليه في أصله، كالبيع والإجارة"(٣). وقال العلامة الآمدي: "المقاصد الخمسة التي لم تخل من رعايتها ملة من الملل، ولا شريعة من الشرائع هي: الدين والنفس، والعقل، والنسل، والمال"(٤).

تعريف مقصد حفظ الدين، وموقعه من مقاصد الشريعة:

إن المقصد الأعظم من المقاصد الضرورية الخمس هو حفظ الدين، ولذا فإن الشريعة الغراء جعلت تحقيقه مقدماً على حفظ باقي الضروريات في حال التعارض بينها، وصار واجب حفظ الدين من أجل الواجبات وأعظمها على الأمة بمجموعها وأفرادها. قال الإمام الشاطبي: "واعتبار الدين مقدم على اعتبار النفس وغيرها في نظر الشرع .."(٥).

---

(١) الموافقات (١٧/٢)

(٢) الموافقات: (٣١/١).

(٣) منتهى السول والأمل (٢٤٠/٢).

(٤) الإحكام في أصول الأحكام (٣٩٤/٣).

(٥) الموافقات (٢٦٥/٢).

وقال العلامة الطاهر ابن عاشور: "وأقول: إن حفظ هذه الكليات معناه حفظها بالنسبة لآحاد الأمة وبالنسبة لعموم الأمة بالأولى. فحفظ الدين معناه: حفظ دين كل أحد من المسلمين أن يدخل عليه ما يفسد اعتقادهُ وعملَه اللاحق بالدين، وحفظ الدين بالنسبة لعموم الأمة: دفع كل ما شأنه أن ينقض أصول الدين القطعية. ويدخل في ذلك حمايةُ البيضة والذبُّ عن الحوزة الإسلامية بإبقاء وسائل تلقي الدين من الأمة حاضرها وآتيها .."[1].

وقال العلامة نور الدين الخادمي: "حفظ الدين يعد أكبر الكليات الخمس وأرقاها، ومعناه تثبيت أركان الدين وأحكامه في الوجود الإنساني والحياة الكونية، وكذلك العمل على إبعاد ما يخالف دين الله ويعارضه، كالبدع ونشر الكفر، والرذيلة والإلحاد، والتهاون في أداء واجبات التكليف. ومن أجل حفظ الدين شرع الإيمان والنطق بالشهادتين والصلاة والزكاة والصيام والحج، وسائر الأعمال والأقوال التي تحقق الدين في النفوس والحياة، كالأذكار والقربات والوعظ والإرشاد والنصح وبناء المساجد والمدارس، وتبجيل العلماء والمصلحين والدعاة وغير ذلك .."[2].

وقال الدكتور محمد اليوبي: "فقد شرع الله من الوسائل ما يتم به حفظ الدين، ومن ذلك:

١- العمل به.

٢- والجهاد من أجله.

٣- والدعوة إليه.

٤- والحكم به.

٥- وردّ كل ما يخالفه"[3].

---

(١) مقاصد الشريعة الإسلامية (٣/٢٣٦).
(٢) علم المقاصد الشرعية (ص٨١).
(٣) مقاصد الشريعة الإسلامية (ص١٩٤).

المبحث الأول

تقرير القرآن بأنَّ الدين عند الله الإسلام

وأنه دين التوحيد الذي جاء به سائر الرسل عليهم السلام

الدين عند الله الإسلام، وجوهره التوحيد

لقد جاء التقرير القرآني الكريم بأن الإسلام هو دين الله الحق وجوهره التوحيد الخالص لله تعالى رب العالمين، وهو ملة إبراهيم عليه السلام ومن بعده سائر الأنبياء والرسل من ذريته كما قال سبحانه على لسان يعقوب عليه السلام وهو على فراش الموت يوصي بنيه: إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ، وكما قررته الآية الكريمة عن إبراهيم عليه السلام: قال الله تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً وَلا نَصْرَانِيّاً وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفاً مُسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٦٧].

ولقد جاء النص القرآني حاسماً في تقرير هذه الحقيقة، قال جل في علاه: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُر بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [آل عمران: ١٩]، قال العلامة البغوي: "يعني: الدين المرضي لله الصحيح، وقَالَ قَتَادَةُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلامُ﴾: شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَالْإِقْرَارُ بِمَا جَاءَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تَعَالَى وَهُوَ دِينُ اللَّهِ الَّذِي شَرَعَ لِنَفْسِهِ وَبَعَثَ بِهِ رُسُلَهُ وَدَلَّ عليه أولياءه، فلا يَقْبَلُ غَيْرَهُ، وَلَا يَجْزِي إِلَّا بِهِ"[1] . وقال العلامة ابن عاشور: "وَلَمَّا كَانَ الْكَلَامُ الْمُتَقَدِّمُ مُشْتَمِلًا عَلَى تَعْرِيضٍ بِالْيَهُودِ وَالنَّصَارَى الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْقُرْآنِ، وَإِبْطَالٍ لِقَوْلِ وَفْدِ نَجْرَانَ لَمَّا طَلَبَ مِنْهُم الرَّسُول ﷺ الْإِسْلَامَ: «أَسْلَمْنَا قَبْلَكَ» فَقَالَ لَهُمْ:

---

(١) معالم التنزيل (١/٤٢٠).

«كَذَبْتُمْ» "[1]. ثم قال: " فَقَوْلُهُ: إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلامُ صِيغَةُ حَصْرٍ، وَهِيَ تَقْتَضِي فِي اللِّسَانِ حَصْرَ الْمُسْنَدِ إِلَيْهِ، وَهُوَ الدِّينُ، فِي الْمُسْنَدِ، وَهُوَ الْإِسْلَامُ، عَلَى قَاعِدَةِ الْحصْر بتعريف جزئي الْجُمْلَةِ، أَيْ لَا دِينَ إِلَّا الْإِسْلَامُ، وَقَدْ أَكَّدَ هَذَا الِانْحِصَارَ بِحَرْفِ التَّوْكِيدِ"[2].

---

(١) أصل خبر وفد نصارى نجران أخرجه الشيخان عن حذيفة رضي الله عنه قال: جاء العاقب والسيد، صاحبا نجران، إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يريدان أن يلاعناه، قال: فقال أحدهما لصاحبه: لا تفعل، فوالله لئن كان نبيا فلاعنّا لا نفلح نحن ولا عقبنا من بعدنا، قالا: إنا نعطيك ما سألتنا، وابعث معنا رجلا أمينا، ولا تبعث معنا إلا أمينا. فقال «لأبعثن معكم رجلا أمينا حق أمين»، فاستشرف له أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «قم يا أبا عبيدة بن الجراح» فلما قام، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «هذا أمين هذه الأمة».

أخرجه البخاري في "صحيحه" ١٧١/٥ برقم ٤٣٨٠ ومواضع أخرى ، كما أخرجه مسلم في "صحيحه" ١٨٨٢/٤ برقم ٢٤٢٠.

أما الخبر بطوله فقد أورده عدد من المفسرين وأهل كتب السير وغيرهم، ورواها البيهقي رحمه الله في دلائل النبوة عن سلمة بن عبد يشوع، عن أبيه، عن جده ٣٨٥/٥-٣٩١، وكذا أبو نعيم رحمه الله : ص٣٥٤ من رواية ابن عباس رضي الله عنهما.

وانظر فيمن نقل الخبر بطوله: ابن هشام في السيرة ١٥٨/٢- ١٦٦ ، ونقل أجزاء منها ابن كثير في تفسيره ٥٠/٢، وكذا الطبراني في المعجم الأوسط ١٧٦/٤ برقم ٣٩٠٦ ، كما أورد طرفاً منها ابن القيم في زاد المعاد ٥٤٩/٣. وكل هذه الروايات لا تخلو أسانيدها من ضعف.

قال الدكتور أكرم العمري: "ورغم عدم ثبوت هذه الأخبار المفصلة التي ساقها المؤرخون عن الوفود بالنقل الصحيح المعتمد عند المحدثين، فإن خبر قدوم بعض هذه الوفود ثابت بالروايات الصحيحة، وكذلك بعض الأخبار المتعلقة بهم؛ فقد ذكر الإمام البخاري قدوم وفد تميم.. وذكر وفد نجران وفيهم العاقب والسيد حاكما نجران، وقد دعاهم الرسول ﷺ إلى الإسلام فأبوا فدعاهم إلى المباهلة..". السيرة النبوية الصحيحة ٥٤٢/٢.

(٢) التحرير والتنوير (١٩٠/٣).

كما قرر القرآن الكريم بأنه لا دين صحيح غير الإسلام، كائنا ما يكون هذا الدين، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآَخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٨٥].

قال الإمام الطبري: "يعني بذلك جل ثناؤه: ومن يطلب دينا غيرَ دين الإسلام ليدين به، فلن يقبل الله منه"(١). وقال الإمام الحافظ ابن كثير: "إخبار منه تَعَالَى بِأَنَّهُ لَا دِينَ عِنْدَهُ يَقْبَلُهُ مِنْ أحد سِوَى الْإِسْلَامِ، وَهُوَ اتِّبَاعُ الرُّسُلِ فِيمَا بَعَثَهُمُ اللَّهُ بِهِ فِي كُلِّ حِينٍ حَتَّى خُتِمُوا بِمُحَمَّدٍ ﷺ" ثم قال: " فَمَنْ لَقِيَ اللَّهَ بعد بعثة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِدِينٍ عَلَى غَيْرِ شَرِيعَتِهِ فَلَيْسَ بِمُتَقَبَّلٍ"(٢). وقال العلامة ابن عاشور: " عُطِفَ عَلَى جُمْلَةِ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَمَا بَيْنَهُمَا اعْتِرَاضٌ، كَمَا عَلِمْتَ، وَهَذَا تَأْيِيسٌ لِأَهْلِ الْكِتَابِ مِنَ النَّجَاةِ فِي الْآخِرَةِ، وَرَدٌّ لِقَوْلِهِمْ: نَحْنُ عَلَى مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ، فَنَحْن ُنَاجُونَ عَلَى كُلِّ حَالٍ. وَالْمَعْنَى مَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ بَعْدَ مَجِيءِ الْإِسْلَامِ"(٣).

ولقد تكلم العلماء والمفسرون في معنى الإسلام المقصود في هاتين الآيتين، ويمكن الخلوص إلى أنهم اتفقوا على أن للإسلام مفهوم خاص، وله مفهوم عام قصدته هاتين الآيتين وهو ملة التوحيد التي جاء بها سائر الأنبياء والرسل، ومصداق هذا قوله ﷺ : "الأنبياء إخوةٌ من عَلَّات، وأمهاتهم شتّى، ودينهم واحد"(٤)، وفي هذا يقول الإمام ابن تيمية: "ولهذا كان الإسلام شهادة أن لا إله إلا الله وهي متضمنة عبادة الله وحده وترك عبادة ما سواه، وهو الإسلام العام الذي لا يقبل الله من أحد من الأولين والآخرين دينا سواه"(٥). وقال أيضا: "ولفظ الإسلام

---

(١) جامع البيان (٥٧٠/٦).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٢٥/٢).

(٣) التحرير والتنوير (٣٠٢/٣).

(٤) أخرجه مسلم (١٨٣٧/٤) برقم (٢٣٦٥).

(٥) مجموع الفتاوى (١٤/١).

يتضمن الاستسلام والسلامة التي هي الإخلاص وقد علم أن الرسل جميعهم بعثوا بالإسلام العام المتضمن لذلك كما قال تعالى: ﴿ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا﴾ [المائدة:٤٤] وقال موسى: ﴿ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٤] .. وقال الخليل لما قال له ربه ﴿أَسْلِمْ﴾: ﴿ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ١٣١] "[١] . وقال الإمام ابن القيم عند قوله تعالى ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾: "يعني الذي جاء به محمد وهو دين الأنبياء من أولهم إلى آخرهم ليس لله دين سواه"[٢].

أما المفهوم الخاص للإسلام فقال عنه –أي الإمام ابن تيمية–: "الإسلام الخاص الذي بعث الله به محمدا ﷺ المتضمن لشريعة القرآن ليس عليه إلا أمة محمد ﷺ اليوم"[٣]، وقال: "والسور المكية نزلت بالأصول الكلية المشتركة التي اتفقت عليها الرسل التي لا بد منها، وهي الإسلام العام الذي لا يقبل الله من أحد من الأولين والآخرين دينا غيره"[٤]. وقال الدكتور عبد الصبور مرزوق "مفهوم كلمة الإسلام بمعناه الشامل يعنى: الاستسلام والانقياد للخالق جل وعلا، فهو بهذا اسم للدين الذى جاء به جميع الأنبياء والمرسلين". ثم قال:" وأما المعنى الخاص لكلمة الإسلام فهو يعنى: تلك الشريعة التى جاء بها سيدنا محمد ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين إلى العالمين، والتى لا تقتصر على جنس أو قوم ولكن إلى الناس كافة، وهى بهذا شريعة عالمية كاملة"[٥].

ثم إنه بالتأمل في المعنيين للإسلام –العام الخاص– وفي ما آل إليه حال أتباع الملل بعد مبعث رسول الهدى ﷺ، يتبين أن المعنيين قد التقيا باعتبار خلو

(١) مجموع الفتاوى (١/١٧٠).
(٢) مدارج السالكين (٣/٤٤١).
(٣) الرسالة التدمرية (ص٧٤).
(٤) الجواب الصحيح (٥/٣٤٢).
(٥) موسوعة المفاهيم الإسلامية العامة (١/٣٥).

الأرض من ملة سماوية لها أصل رسالي تدين بالتوحيد الخالص، فضلا عن كفر جميعهم بخاتم النبيين ﷺ، وعليه: فإن كل المعاني تتوافق على أن لفظ الإسلام بكل معانيه لا ينطبق إلا على هذه الشريعة التي جاء بها الرسول الخاتم محمد ﷺ، وإن بقي الافتراق بين المعنيين في شمول لفظ الإسلام –بمعناه العام– لما جاءت به الرسل عليه السلام قبل البعثة المحمدية، وخصوص معناه بالشريعة الخاتمة في مقابل ذلك، والله تعالى أعلم.

الدين التام الذي لا نقص فيه ولا قصور

ولقد بيَّن لنا أنَّ الكتاب العزيز بأن هذا الدين قد شرعه الله كاملا منزها من كل نقيصة أو خلل أو قصور، ولذا فإنه لا يجوز أن يزيد فيه أحد ولا أن ينقص منه، وقد قال سبحانه: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]. كما أنه الدين القيم الذي جعله الله موافقاً للفطرة التي جبل خلقه عليها، كما قال جل في علاه: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم:٣٠]، وقال: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام:١٦١].

قال الإمام السمعاني: "هُوَ دين الْإِسْلَام، أَي: دينا مُسْتَقِيمًا"(١). وقال العلامة القاسمي: "قِيَمًا صِفَةُ (دِينًا) يُقْرَأُ بِالتَّشْدِيدِ أيْ: ثابِتًا أبَدًا لا تُغَيِّرُهُ المِلَلُ والنِّحَلُ، ولا تَنْسَخُهُ الشَّرائِعُ والكُتُبُ، مُقَوِّمًا لِأمْرِ المَعاشِ والمَعادِ. ويُقْرَأُ بِالتَّخْفِيفِ. عَلى أنَّهُ مَصْدَرٌ نُعِتَ بِهِ. وأصْلُهُ قِوَمٌ كَعِوَضٍ. فَأُعِلَّ لِإعْلالِ فِعْلِهِ كالقِيامِ"(٢).

(١) تفسير القرآن (١٦١/٢).

(٢) محاسن التأويل (٥٥٤/٤).

كما قرر القرآن العظيم بأن هذا التوحيد كان هو العهد الذي أخذه الله على بني آدم أجمعين .

وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِين. أَوْ تَقُولُواْ إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُون﴾ [الأعراف:١٧٢- ١٧٣]. قال الإمام الطبري: " يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: واذكر يا محمد ربَّك إذ استخرج ولد آدم من أصلاب آبائهم، فقرَّرهم بتوحيده، وأشهد بعضهم على بعض شهادَتَهم بذلك، وإقرارَهم به" [(١)]. وقال العلامة الجوزي: "ومعنى الآية: وإذ أخذ ربكم من ظهور بني آدم. فقوله تعالى: مِنْ ظُهُورِهِمْ بدل من بَنِي آدَمَ" [(٢)].

وفي إيراد القرآن لهذا الإشهاد توثيق للعهد الأعظم الذي أخذه الله تعالى على سائر الناس في شأن التوحيد الخالص الذي لا تقوم العبودية الحقة إلا به [(٣)].

---

(١) جامع البيان (٢٥١/١٣).

(٢) في زاد المسير (١٦٧/٢).

(٣) أما كيفية الإشهاد فقد اختلف العلماء في ذلك، وقد حكى الخلاف الحافظ ابن الجوزي في زاد المسير (١٦٧/٢) فقال: " وفي قوله تعالى: ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلى أَنْفُسِهِمْ﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: أشهدهم على أنفسهم بإقرارهم، قاله مقاتل. والثاني: دلَّهم بخلقه على توحيده، قاله الزجاج. والثالث: أنه أشهد بعضهم على بعض بإقرارهم بذلك، قاله ابن جرير".
أشار العلامة محمد الأمين حاكيًا قول العلماء المتقدمين في توضيح وقت الإشهاد متى كان وكيف كان ؟ وذكر أنه أخرجهم في عالم الذر وأشهدهم على أنفسهم، ورجح هذا في أضواء البيان، وقال في العذب النمير (٣١٠/٤): " وعليه أكثر المتقدمين من السلف، وهو الذي يدل له بعض الأحاديث الصحيحة، والقرآن قد يُرْشِدُ إليه: أنه هو الأخذ يوم الميثاق المعروف، أن الله تبارك وتعالى أخذ من ظهر آدم ومن ظهور ذرياته كل نسمةٍ سبق في عِلْمِهِ أنها مخلوقة إلى يوم القيامة فأخذهم بيده (جلّ وعلا) بعضهم للجَنَّة وبعضهم للنار،=

المبحث الثاني

ترسيخ الولاء لله ورسوله والمؤمنين والبراء

مما سوى ذلك من مناهج الكفر كلها

ولقد اعتنى القرآن الكريم بهذا المبدأ العقدي الذي لا يخفى ما له من أثر في حفظ الدين، وفي غياب هذا المبدأ يجد أتباع الملل الأخرى منفذا لتطويع المسلمين لمصالحهم، وجعلهم أتباعاً لا متبوعين، أو ليتمكنوا من الميل بالمنهج الإسلامي للاعتراف بما هم عليه من انحراف يتعارض مع الأصل التعبدي الذي جاءت به سائر الرسل من توحيد العبودية لله رب العالمين واتباع رسوله خاتم النبيين، ولا غرابة –إن خضع المسلمين لسلطانهم– تطلعوا إلى تحريف دين الإسلام وتبديل أصوله ومبادئه، كما فعلوا هم بأديانهم لتكون أوفق مع مصالحهم، فكيف بدين غيرهم! ، والله تعالى يخاطب رسوله ﷺ فيقول: ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [المائدة:١٢٠]

قال الإمام الطبري: "وليست اليهود يا محمد، ولا النصارى براضية عنك أبدا، فدع طلب ما يرضيهم ويوافقهم، وأقبل على طلب رضا الله في دعائهم إلى ما

= وجعل فيهم إدراكًا وقال لهم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ فقالوا: بلى. إلاّ أن هذا العهد لا يولد أحد إلا وهو ناسٍ له، والله (جلّ وعلا) أرسل الرسل يُذَكرون بهذا العهد، وما ثبت عن الرسل هو وما حضره الإنسان في التحقيق واحد؛ لأن ما قاله رسول الله ﷺ نحن نجزم بوقوعه أشد مما نجزم بما شاهدناه ولاحظناه وتذكرناه. وهذا القول قال به كثير من السلف، ودلت عليه أحاديث كثيرة".

وقال الحافظ ابن كثير في تفسيره (٥٠٠/٣): " يخبر تعالى أنه استخرج ذرية بني آدم من أصلابهم، شاهدين على أنفسهم أن الله ربهم ومليكهم، وأنه لا إله إلا هو. كما أنه تعالى فطرهم على ذلك وجبلهم عليه".

بعثك الله به من الحق، فإن الذي تدعوهم إليه من ذلك لهو السبيل إلى الاجتماع فيه معك على الألفة والدين القيم، ولا سبيل لك إلى إرضائهم باتباع ملتهم" (١).

ولقد عني القرآن الكريم بهذا المبدأ، وظهر ذلك من خلال أوجه متعددة، سأشير إلى أبرزها كما يأتي:

- تقرير الآيات الكريمة للبراءة مع أصل مبدأ الشرك بالله، لتشمل سائل مناهجه وملله مهما تعددت وتجددت.

إن البراء من الشرك وأهله مبدأ شرعي متين، نحى فيه قوم إلى الغلو وتجاوز الحد الشرعي الذي تقرر بنصوص الكتاب والسنة، كما نحى آخرون إلى التفريط والتضييع له في ظل انهزام حضاري بات اليوم يطغى على الأغلب من واقع أمة الإسلام.

والحق أن شريعة الإسلام رسمت لهذا المبدأ معالم منهجية بيّنة، تراعي العدل وتحفظ الدماء المحرمة، وتعظّم العهد، ولا تجيز التعدي على حقه المشروع مهما تمادى في شركه، كما لا تقبل مداهنة في عقيدة التوحيد ولوازمها العلمية والعملية، والتي منها جاء المبدأ الذي قرره القرآن العظيم.

إن كتاب الله تعالى مليء بالآيات الواضحات في تقرير البراءة التامة من الشرك بالله تعالى بكل صوره وأشكاله وأنه لازم من لوازم الإسلام والإيمان، من ذلك قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنِّيَ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكَين ﴾ [الأنعام:١٤] وقوله جل في علاه: ﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادةً قُلِ اللّهِ شَهِيدٌ بِيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُل لاَّ أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُون﴾ [الأنعام:١٩]. فالإقرار بتوحيد الله تعالى لا ينفك عن البراءة من كل ممارسات الشرك ومظاهره ومنابره وأعلامه.

---

(١) جامع البيان (٥٦٢/٢).

ولقد تكرر على لسان رسل الله عليهم السلام النهي الجازم عن التقارب العقدي مع سائر ملل الكفر.

فهذا نبي الله نوح عليه السلام يقول لقومه الذين جنحوا عن التوحيد إلى عبادة الأصنام: ﴿ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ ﴾ ، وكان من قول الخليل عليه السلام لقومه: ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ. إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام: ٧٨-٧٩]. وهذا نبي الله هود قال الله على لسانه: ﴿إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ [هود: ٥٤]، وهكذا سائرهم حتى جاء خيرهم وخاتمهم ﷺ مقررً لذات المبدأ، وهاهو أمر الله تعالى يتنزل عليه بألا يحيد عن هذا النهج المتين: ﴿ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ قُل لاَّ أَتَّبِعُ أَهْوَاءكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُهْتَدِين ﴾ [الأنعام:٥٦].

قال العلامة الطبري: "أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين بربّهم من قومِك، العادلين به الأوثان والأنداد، الذين يدعونك إلى موافقتهم على دينهم وعبادة الأوثان: إنّ الله نهاني أن أعبد الذين تدعون من دونه، فلن أتبعكم على ما تدعونني إليه من ذلك ولا أوافقكم عليه ولا أعطيكم محبّتكم وهواكم فيه. وإن فعلت ذلك فقد تركت محجَّة الحق وسلكت على غير الهدى" [(١)]. وقال العلامة ابن عاشور: "استئناف ابتدائي عاد به الكلام إلى إبطال الشرك بالتبري من عبادة أصنامهم، فإنه بعد أن أبطل إلهية الأصنام بطريق الاستدلال... جاء في هذه الآية بطريقة أخرى لإبطال عبادة الأصنام وهي أن الله نهى رسوله ﷺ عن عبادتها وعن اتباع أهواء عبدتها" [(٢)].

---

(١) جامع البيان (٣٩٦/١١).

(٢) التحرير والتنوير (٢٦١/٧).

وإن في كتاب الله العديد من الآيات التي تقرر ما يجب على المؤمنين من براءتهم المطلقة من الشرك والمشركين، كما في قوله: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [يوسف: ١٠٨]، وقوله: ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [القصص: ٨٧] وقوله: ﴿ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [الروم: ٣١]، إلى غيرها من الآيات الكريمات.

ولقد بلغ القرآن في تقريره لهذا المعنى منتهاه حين أعلن البراءة المطلقة من الشرك وأهله وكافة ملله.

وتأكد هذا في آخر ما نزل، كما في مطلع سورة التوبة في قوله تعالى: ﴿ بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ..﴾ [التوبة:١] ثم قوله: ﴿وَأَذَانٌ مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ أَنَّ اللّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة:٣]. قال العلامة الرازي: "وفي هذه الآية أظهر البراءة عن المشركين من غير أن وصفهم بوصف معين، تنبيها على أن الموجب لهذه البراءة كفرهم وشركهم"(١).

وفي سورة آل عمران يدعو القرآن الكريم أهل الكتاب إلى الالتقاء على كلمة التوحيد، وإلا فلا التقاء: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُون﴾ [آل عمران:٦٤]، والآيات في هذا كثيرة ومتضافرة.

النهي عن استغفار المشركين:

ولقد بلغ الشأن بتلك البراءة التي أرادها الله من عباده المؤمنين أن صار الاستغفار للمشركين محرما ولو كان لهم من حق القرابة ما كان، يقول سبحانه:

(١) مفاتيح الغيب (٥٢٦/١٥).

﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُواْ أُوْلِي قُرْبَى مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [التوبة:١١٣]. قال العلامة الرازي: "اعلم أنه تعالى لما بين من أول هذه السورة إلى هذا الموضع وجوب إظهار البراءة عن الكفار والمنافقين من جميع الوجوه بين في هذه الآية أنه تجب البراءة عن أمواتهم، وإن كانوا في غاية القرب من الإنسان كالأب والأم، كما أوجبت البراءة عن أحيائهم"(١). وقال العلامة البقاعي: "فَإنَّ الِاسْتِغْفارَ مَعْناهُ مَحْوُ الذُّنُوبِ حَتّى يَنْجُوَ صاحِبُها مِنَ النّارِ ويَدْخُلَ الجَنَّةَ وما يَنْبَغِي لَهم أنْ يَكُونَ لَهم إلَيْهِمُ التِفاتٌ"(٢).

كما بين سبحانه عواقب الشرك الوخيمة على دين المرء

من حبوط العمل، وأنه الله تعالى لا يغفر الشرك ويغفر ما دونه لمن يشاء، وأنه ينتهي بصاحبه إلى عذاب النار خالدا فيها وبئس المصير. يقول جل وعلا: ﴿ذَلِكَ هُدَى اللّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُواْ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَعْمَلُون﴾[الأنعام:٨٨] ، ويقول سبحانه مخاطبا نبيه محمداً ﷺ: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ . بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥-٦٦].

قال العلامة ابن الجوزي: " قال ابن عباس: هذا أدبٌ من الله تعالى لنبيّه ﷺ وتهديد لغيره؛ لأنّ الله عزّ وجلّ قد عصمه من الشِّرك. وقال غيره: إنما خاطبه بذلك، لِيَعْرِفَ مَنْ دونَه أن الشِّرك يُحبِطُ الأعمال المتقدِّمة كلَّها ولو وقع من نبيٍّ"(٣). وقال العلامة ابن عاشور: "وأعقب بأنهم جاهلون بأن التوحيد هو سنة الأنبياء وأنهم لا يتطرق الإشراك حوالي قلوبهم، فالمقصود الأهم من هذا الخبر التعريض بالمشركين إذ حاولوا النبي ﷺ على الاعتراف بإلٰهية أصنامهم "(٤).

---

(١) مفاتيح الغيب (١٥٧/١٦).

(٢) نظم الدرر (٣٠/٩).

(٣) زاد المسير (٢٥/٤).

(٤) التحرير والتنوير (٥٨/٢٤).

وفي سورة البينة، يأتي التقرير الحاسم بشرّ عاقبة الكافرين إذ يقول سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ [البينة:٦]. قال الإمام ابن كثير: "يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ مَآلِ الْفُجَّارِ، مِنْ كَفَرَةِ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَالْمُشْرِكِينَ الْمُخَالِفِينَ لَكُتُبِ اللَّهِ الْمُنَزَّلَةِ وَأَنْبِيَاءِ اللَّهِ الْمُرْسَلَةِ: أَنَّهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ في نار جهنم خالدين فيها"(١).

كما اعتنى القرآن الكريم بمخاطبة العقل ومجادلة الإنسان بالحجج والبراهين التي تقوده إلى التوحيد وتزرع في نفسه النفرة الشرك في أصله وسائر صوره وتفرعاته

ولقد أكثر القرآن العظيم من هذا وتنوعت خطاباته ومجادلاته التي توقظ العقل وتلامس الفطرة والروح. من أمثلة ذلك قوله سبحانه: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِين* قُلِ اللّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُون﴾ [الأنعام:٦٣-٦٤]. وقوله جل جلاله: ﴿قُلْ أَنَدْعُو مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَنفَعُنَا وَلاَ يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللّهِ هُوَ الْهُدَى وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِين﴾ [الأنعام:٧١].

وفي حوار جليل ومستفيض: ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً جَعَلاَ لَهُ شُرَكَاء فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللّهُ عَمَّا يُشْرِكُون. أَيُشْرِكُونَ مَا لاَ يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُون. وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلاَ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُون. وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لاَ يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاء عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُون. إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِين. أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُواْ

(١) تفسير القرآن العظيم (٤٥٧/٨).

شُرَكَاءكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلاَ تُنظِرُون. إِنَّ وَلِيِّيَ اللّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِين. وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلآ أَنفُسَهُمْ يَنْصُرُون. وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لاَ يَسْمَعُواْ وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لاَ يُبْصِرُون﴾ [الأعراف: ١٩٠-١٩٨].

قال العلامة ابن جرير في تفسيره لهذه الآيات: "وإنما أراد الله جل ثناؤه بوصف آلهتهم بذلك من صفتها، تنبيهَهم على عظيم خطئهم، وقبح اختيارهم... يقول: فكيف يُعبد من كانت هذه صفته، أم كيف يُشْكِل عظيمُ جهل من اتخذ ما هذه صفته إلهًا؟ وإنما الرب المعبود هو النافع من يعبده، الضارّ من يعصيه، الناصرُ وليَّه، الخاذل عدوه، الهادي إلى الرشاد من أطاعه، السامع دعاء من دعاه" (١). وقال العلامة ابن عطية: "وإنما تكرر القول في هذا وترددت الآيات فيه لأن أمر الأصنام وتعظيمها كان متمكنا من نفوس العرب في ذلك الزمن ومستوليا على عقولها فأوعب القول في ذلك لطفا من الله تعالى بهم"(٢).

كما انتهج القرآن إيقاظ العقول من خلال تحفيزها للنظر فيما حولها ومساءلة النفس عمن أوجد ذلك وأتاحه للخلق، من ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ والأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيَّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللّهُ فَقُلْ أَفَلاَ تَتَّقُون. فَذَلِكُمُ اللّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلاَلُ فَأَنَّى تُصْرَفُون. قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُون. قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لاَّ يَهِدِّيَ إِلاَّ أَن يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُون﴾[يونس:٣١-٣٥]، وشواهد ذلك في كتاب الله كثيرة.

---

(١) جامع البيان (٣٢٠/١٣).

(٢) المحرر الوجيز (٤٩٠/٢).

أما حكاية القرآن عن الأنبياء وما كان من صراعهم مع أقوامهم في شأن تقرير التوحيد فهو مما اعتنى القرآن بسرد أحداثه وإفاضة الحديث عنه.

ولا ريب بأن في هذه القصص تثبيتاً كبيراً لرسول الله ﷺ ولمن سار على نهجه من أمته في طريق الدعوة، ليكونوا راسخين على ملة التوحيد لله رب العالمين موقنين بأن العاقبة للحق ولو بعد حين. قال الله تعالى: ﴿ وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ. وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ . وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ ﴾ [هود: ١٢٠-١٢٢]. ويقول سبحانه: ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ . وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [الأنعام:٣٣-٣٤]. قال العلامة الآلوسي: "تَسْلِيَةٌ إِثْرَ تَسْلِيَةٍ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ ... وفِيهِ إِرْشادٌ لَهُ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ إلى الِاقْتِداءِ بِمَن قَبْلَهُ مِنَ الرُّسُلِ الكِرامِ في الصَّبْرِ عَلى الأذى وعُدَّةٌ ضِمْنِيَّةٌ بِمِثْلِ ما مُنِحُوهُ مِنَ النَّصْرِ"(١).

وقال العلامة ابن عاشور: " وتَثْبِيتُ فُؤادِ الرَّسُولِ ﷺ زِيادَةُ يَقِينِهِ ومَعْلُوماتِهِ بِما وعَدَهُ اللَّهُ، لِأنَّ كُلَّ ما يُعادُ ذِكْرُهُ مِن قَصَصِ الأنْبِياءِ وأحْوالِ أُمَمِهِمْ مَعَهم يَزِيدُهُ تَذَكُّرًا وعِلْمًا بِأنَّ حالَهُ جارٍ عَلى سُنَنِ الأنْبِياءِ وازْدادَ تَذَكُّرًا بِأنَّ عاقِبَتَهُ النَّصْرُ عَلى أعْدائِهِ، وتَجَدُّدُ تَسْلِيَةٍ عَلى ما يَلْقاهُ مِن قَوْمِهِ مِنَ التَّكْذِيبِ وذَلِكَ يَزِيدُهُ صَبْرًا"(٢).

---

(١) روح المعاني (١٢٩/٤).

(٢) التحرير والتنوير (١٩٢/١٢).

المبحث الثالث

تحذير المؤمنين من خطر المنافقين وتعميق الوعي بأساليب كيدهم والحث على جهادهم بالعلم والبيان

إن مما اعتنى القرآن الكريم بتوكيد العناية به –حفظا للدين– التنبه لخطر النفاق والمكر الذي يمارسه المنافقون في كل زمان وهم يتربصون بالدين وأهله ولا يرقبون في مؤمن إلاً ولا ذمة، والنهي المطلق عن طاعتهم واعتبار ذلك لاحقاً بطاعة الكافرين، كما قال سبحانه: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [الأحزاب:١].

وإن من اللافت للنظر سعة حديث القرآن عن النفاق والمنافقين، وتعدد أساليبه في بيان خطرهم وحث المؤمنين على التنبه والحذر من مكرهم

ولقد خصص في القرآن سورة تتحدث بأكملها عنهم، هي سورة المنافقون. قال العلامة الفيروزآبادي: "معظم مقصود السّورة: تقريع المنافقين وتبكيتهم، وبيان ذلّهم وكذبهم" [(١)].

ولقد اتسمت السورة الكريمة بالوصف الدقيق للمنافقين، وجاء في ثنايا هذا الوصف تحذير عظيم لرسوله ﷺ ولأمته من بعده من خطرهم، بقوله سبحانه في أوائل آياتها: ﴿ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ ﴾ [المنافقون: ٤]. قال الإمام الطبري: "هم العدوّ يا محمد فاحذرهم، فإن ألسنتهم إذا لَقُوكم معكم وقلوبهم عليكم مع أعدائكم، فهم عين لأعدائكم عليكم"[(٢)]. وقال العلامة أبو حيان: "ولما أخبره تعالى بعداوتهم أمره بحذرهم، فلا يثق بإظهار مودتهم، ولا بلين كلامهم"[(٣)]. وقال العلامة البقاعي: "﴿هم ﴾ أي خاصة العدو... إشارة إلى أنهم –في شدة عداوتهم للإسلام وأهله

---

(١) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز (٤٤٦/١).

(٢) جامع البيان (٣٩٦/٢٣).

(٣) البحر المحيط (١٨١/١٠).

وكمال قصدهم وشدة سعيهم فيه- على قلب واحد وإن أظهروا التودد في الكلام والتقرب به إلى أهل الإسلام، فإن ألسنتهم معكم إذا لقوكم، وقلوبهم عليكم مع أعدائكم، فهو عيون لهم عليكم. ثم قال: " ﴿فاحذرهم﴾: لأن أعدى الأعداء العدو المداحي الذي يكاشرك وتحت ضلوعه الداء الدوي" (١). وقال العلامة ابن عاشور: "والمراد الحذر من الاغترار بظواهرهم الخلابة لئلا يُخلص المسلمون إليهم بسرهم ولا يتقبلوا نصائحهم خشية المكائد. والخطاب للنبي -صلى الله عليه وسلم- ليبلغه المسلمين فيحذروهم" (٢)

كما أن من أهم ما ظهرت من خلاله عناية القرآن الكريم بالتحذير من خطر النفاق والمنافقين: أن جاء الأمر متأكدا متكررا لعباده المؤمنين بأن يجاهدوا المنافقين.

وهذا يعني توجيها للمؤمنين بأن يكون لهم موقف وسلوك تعبدي نحو المنافقين وما يكيدون به، بل إن القرآن الكريم اعتبره صورة من صور الجهاد وواحداً من ميادينه المهمة للذب عن حياض الدين، قال سبحانه: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ ﴾ [التوبة:٧٣].

ولقد اختلف المفسرون في ماهية هذا الجهاد الذي يتوجه به المؤمنون نحو المنافقين، وفي ذلك يورد الإمام الطبري كلاما مهماً فيقول: "واختلف أهل التأويل في صفة "الجهاد" الذي أمر الله نبيه به في المنافقين. فقال بعضهم: أمره بجهادهم باليد واللسان، وبكل ما أطاق جهادَهم به.." ثم قال: "وأولى الأقوال في تأويل ذلك عندي بالصواب، ما قال ابن مسعود: من أنّ الله أمر نبيَه ﷺ من جهاد المنافقين، بنحو الذي أمرَه به من جهاد المشركين" (٣).

---

(١) نظم الدرر (٦٠٩/٧).

(٢) التحرير والتنوير (٢٤٢/٢٨).

(٣) جامع البيان (٣٥٨/١٤).

وقال الزمخشري: "جاهِدِ الْكُفَّارَ بالسيف وَالْمُنافِقِينَ بالحجة وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ في الجهادين جميعاً ولا تحابهم، وكل من وقف منه على فساد في العقيدة فهذا الحكم ثابت فيه، يجاهد بالحجة وتستعمل معه الغلظة ما أمكن منها" (١).

وقال العلامة الخفاجي: "ظاهر الآية يقتضي مقاتلة المنافقين، وهم غير مظهرين للكفر، ونحن مأمورون بالظاهر فلذا فسر الآية السلف بما يدفع ذلك بناء على أن الجهاد بذل الجهد في دفع ما لا يرضي سواء كان بالقتال أو بغيره.. وجهاد المنافقين لإلزامهم بالحجج وإزالة الشبه ونحوه أو بإقامة الحدود عليهم إذا صدر منهم ما يقتضي ذلك" (٢) .

وقال العلامة ابن عطية: " قوله جاهِدِ مأخوذ من بلوغ الجهد وهي مقصود بها المكافحة والمخالفة، وتتنوع بحسب المجاهد، فجهاد الكافر المعلن بالسيف، وجهاد المنافق المتستر باللسان والتعنيف والاكفهرار في وجهه، ونحو ذلك" (٣).
وقال الحافظ ابن رجب: " الجهادُ في سبيلِ اللَّه، وهو مجاهدةُ أعدائِهِ باليدِ واللسانِ، وذلك أيضًا من تمامِ معاداةِ أعداءِ اللَّه الذي تستلزمُه المحبةُ، وأيضًا فالجهادُ في سبيلِ اللَّه فيه دعاءُ الخلقِ إلى اللَّهِ وردُّهم إلى بابِه بالقهرِ لهم والغلبة". وقال العلامة ابن عاشور: " فالجهاد المأمور للفريقين مختلف، ولفظ (الجهاد) مستعمل في حقيقته ومجازه. وفائدة القرن بين الكفار والمنافقين في الجهاد: إلقاء الرعب في قلوبهم، فإن كل واحد منهم يخشى أن يظهر أمره فيعامل معاملة الكفار المحاربين فيكون ذلك حاصدًا شوكتهم". ثم قال: "وأما جهادهم بالفعل فمتعذر، لأنهم غير مظهرين الكفر، ولذلك تأول أكثر المفسرين الجهاد بالنسبة إلى المنافقين بالمقاومة بالحجة وإقامة الحدود عند ظهور ما يقتضيها،

---

(١) الكشاف (٢/٢٩٠).
(٢) حاشية البيضاوي (٤/٣٤٤).
(٣) المحرر الوجيز (٣/٥٩).

وكان غالب من أقيم عليه الحد في عهد النبوءة من المنافقين. وقال بعض السلف جهادهم ينتهي إلى الكشر في وجوههم. وحملها الزجاج والطبري على ظاهر الأمر بالجهاد، ونسبه الطبري إلى عبد الله بن مسعود، ولكنهما لم يأتيا بمقنع من تحقيق المعنى. وهذه الآية إيذان للمنافقين بأن النفاق يوجب جهادهم قطعا لشأفتهم من بين المسلمين، وكان رسول الله ﷺ يعلمهم ويعرفهم لحذيفة بن اليمان، وكان المسلمون يعرفون منهم من تكررت بوادر أحواله، وفلتات مقاله. وإنما كان النبيء ممسكا عن قتلهم سدا لذريعة دخول الشك في الأمان على الداخلين في الإسلام" [(١)].

ثم إن الكتاب العزيز قد اعتنى ببيان صفاتهم وأحوالهم وعلامات نفاقهم في مواضع عدة

وما ذلك إلا ليعرفهم المسلمون بأوصافهم، فيكونوا أشد حذراً منهم مهما تحصنوا بالتخفي وإظهار ما يخالف حقيقة أمرهم، ولقد أشار القرآن على هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٠]. قال الإمام الطبري: "فلتعرفهم بعلامات النفاق الظاهرة منهم في فحوى كلامهم وظاهر أفعالهم"[(٢)].

أما وصف القرآن لأحوالهم وصفاتهم فهو ما كان من أبلغ الوصف أسلوباً ومضمونا، من ذلك قوله سبحانه: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ . وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ. وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ ﴾ [البقرة: ٢٠٤-٢٠٦] ، وقوله: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا.

---

(١) التحرير والتنوير (٢٦٥/١٠).

(٢) جامع البيان (١٨٤/٢٢).

مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ﴾ [النساء: ١٤٢-١٤٣]، وقوله: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ [المنافقون: ٤]. ومواطن هذا في كتاب الله كثيرة ولا تخفى.

وللإمام ابن القيم سرد بديع لما أورده القرآن الكريم من أوصافهم، قال في مطلعه: "ومن تأمل ما وصف الله به المنافقين في القرآن من صفات الذم علم أنهم أحق بالدرك الأسفل فإنه وصفهم بمخادعته ومخادعة عباده ووصف قلوبهم بالمرض وهو مرض الشبهات والشكوك. ووصفهم بالإفساد في الأرض وبالاستهزاءِ بدينه وبعباده، وبالطغيان، واشتراءِ الضلالة بالهدى والصمم والبكم والعمى والحيرة والكسل عند عبادته، والزنا وقلة ذكره، والتردد والتذبذب بين المؤمنين والكفار، فلا إلى هؤلاءِ ولا إلى هؤلاءِ، والحلف باسمه تعالى كذبًا وباطلًا، وبالكذب، وبغاية الجبن، وبعدم الفقه في الدين وعدم العلم، وبالبخل، وبعدم الإيمان بالله واليوم الآخر وبالرب، وبأنهم مضرة على المؤمنين ولا يحصل كلهم بنصيحتهم إلا الشر من الخبال والإسراع بينهم بالشر وإلقاءِ الفتنة، وكراهتهم لظهور أمر الله، ومحو الحق، وأنهم يحزنون بما يحصل للمؤمنين من الخير والنصر، ويفرحون بما يحصل لهم من المحنة والابتلاءِ، وأنهم يتربصون الدوائر بالمسلمين، وبكراهتهم الإنفاق في مرضاة الله وسبيله، وبعيب المؤمنين ورميهم بما ليس فيهم.." إلى آخر ما قال وأجاد رحمه الله[1].

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين (١/٤٠٤).

المبحث الرابع

الأمر بالاتباع والتسليم والتحاكم إلى الوحي المطهر والتحذير من التفرق والابتداع ومفارقة جماعة المسلمين

ولا ريب بأن هذا من مهمات ما يحفظ على المرء دينه، كما يبقي للمجتمع هويته القائمة على الإسلام بصفائه ونقاء منهجه بعيداً عن سائر المحدثات والضلالات، والأهواء والعصبيات التي تزاحم التجرد المطلق وتحل بديلا عن التسليم والانقياد التام لأمر الله ورسوله ﷺ.

- **ولقد قرر القرآن القرآن العظيم بأن التسليم لأمر الله ورسوله ﷺ والتحاكم إلى حكمهما من معالم الإيمان الكبرى التي تميز أهل الصدق والإيمان الحق عن غيرهم.**

وهاهو القرآن العظيم يفرّق بين حال المؤمنين والمنافقين في شأن تسليمهم للوحي.

فيقول سبحانه: ﴿ وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ . وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ . وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ . أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمَ الظَّالِمُونَ ﴾ [النور:٤٧-٥٠]. ثم بعد هذا الوصف لطائفة النفاق يعقّب السياق القرآني مبيّناً كيف هو حال أهل الإيمان الحق في شأن التحاكم إلى الله ورسوله، وأن علامة صدق إيمانهم ما يكون من التسليم والإذعان: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [النور:٥١]. قال الإمام ابن كثير: "ثم أخبر تعالى عن صفة المؤمنين المستجيبين لله ولرسوله، الذين لا يبغون دينا سوى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ" (١).

(١) تفسير القرآن العظيم (٦/٧٥).

وقال العلامة الطاهر بن عاشور: "وقد أفاد هذا الاستئناف أيضا الثناء على المؤمنين الأحقاء بضد ما كان ذما للمنافقين.." ثم قال: "وجيء بصيغة الحصر (إنما) لدفع أن يكون مخالف هذه الحالة في شيء من الإيمان وإن قال بلسانه إنه مؤمن" (١). وقال العلامة السعدي: "حقيقة الذين صدقوا إيمانهم بأعمالهم حين يدعون إلى الله ورسوله ليحكم بينهم، سواء وافق أهواءهم أو خالفها، ﴿ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾، أي سمعنا حكم الله ورسوله، وأجبنا من دعانا إليه، وأطعنا طاعة تامة، سالمة من الحرج" (٢).

ولقد قرر القرآن الكريم اشتراط هذا التحاكم في ثبوت وصف الإيمان، قال سبحانه: ﴿ فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥]. قال العلامة الجصاص: "وفي هذه الآية دلالة على أن من رد شيئا من أوامر الله تعالى، أو أوامر النبى ﷺ فهو خارج من الإسلام، سواء رده من جهة الشك فيه، أو من جهة ترك القبول والامتناع من التسليم، وذلك يوجب صحة ما ذهب إليه الصحابة في حكمهم بارتداد من امتنع من أداء الزكاة" (٣) . وقال الإمام ابن تيمية: "فأقسم سبحانه بنفسه أنهم لا يؤمنون حتى يحكموه ثم لا يجدوا في نفوسهم حرجا من حكمه" (٤). وقال أيضًا: " فمن لم يلتزم تحكيم الله ورسوله فيما شجر بينهم فقد أقسم الله بنفسه أنه لا يؤمن، وأما من كان ملتزما لحكم الله ورسوله باطنا وظاهرا، لكن عصى واتبع هواه فهذا بمنزلة أمثاله من العصاة"(٥). وقال العلامة السعدي: "فالتحكيم في مقام الإسلام، وانتفاء الحرج في مقام الإيمان، والتسليم في مقام

(١) التحرير والتنوير (٢٧٤/١٨).
(٢) تيسير الكريم الرحمن (٥٧٢).
(٣) أحكام القرآن (١٨١/٣).
(٤) الصارم المسلول (ص٥٢٨).
(٥) منهاج السنة (١٣١/٥).

الإحسان. فمَن استكمل هذه المراتب وكملها، فقد استكمل مراتب الدين كلها. ومَن ترك هذا التحكيم المذكور غير ملتزم له فهو كافر، ومَن تركه مع التزامه فله حكم أمثاله من العاصين" [1].

كما توعّد القرآن الكريم من ابتغاء حكم الجاهلية، وحذر من عواقب ذلك

إذ يقول جل في علاه: ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة : ٥٠]، قال الحافظ ابن كثير: " ينكر تعالى على من خرج عن حكم الله المحكم المشتمل على كل خير، الناهي عن كل شر وعدل إلى ما سواه من الآراء والأهواء والاصطلاحات التي وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله، كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الضلالات والجهالات، مما يضعونها بآرائهم وأهوائهم، وكما يحكم به التتار من السياسات الملكية المأخوذة عن ملكهم جنكز خان"[2] إلى آخر ما قال رحمه الله. وقال العلامة ابن سعدي: "أفيطلبون بتوليهم وإعراضهم عنك حكم الجاهلية، وهو كل حكم خالف ما أنزل الله على رسوله. فلا ثم إلا حكم الله ورسوله أو حكم الجاهلية. فمن أعرض عن الأول ابتلي بالثاني المبني على الجهل والظلم والغي، ولهذا أضافه الله للجاهلية"[3]. ثم إن القرآن العظيم نعت الذين يحكمون بغير ما أنزل الله تعالى بأنهم : كافرون وفاسقون وظالمون[4]، قال ابن عباس رضي الله عنهما: "مَنْ جَحَدَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَقَدْ كَفَرَ. وَمَنْ أَقَرَّ بِهِ وَلَمْ يَحْكُمْ فَهُوَ ظَالِمٌ فَاسِقٌ" [5].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص١٨٤).

(٢) تفسير القرآن العظيم (١٣١/٣).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (ص٢٣٤).

(٤) الآيات: ٤٤ و ٤٥ و ٤٧ من سورة المائدة.

(٥) جامع البيان (٣٥٧/١٠).

- **كما أنه سبحانه حذر من اتباع الأهواء والشهوات وأربابها.**

فلقد حذر القرآن من مغبة اتباع الهوى وأنها باب يفضي إلى الضلال ويزرع في القلب تعلقاً بغير الله.

قال جل في علاه: ﴿ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنَ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [هود:٥٠] . قال العلامة ابن جرير: "إن الله لا يوفق لإصابة الحقّ وسبيل الرشد القوم الذين خالفوا أمر الله وتركوا طاعته، وكذّبوا رسوله، وبدّلوا عهده، واتبعوا أهواء أنفسهم إيثارا منهم لطاعة الشيطان على طاعة ربهم" (١). وقال العلامة الطاهر ابن عاشور: "ووجه كونه لا أضل منه، أن الضلال في الأصل خطأ الطريق وأنه يقع في أحوال متفاوتة في عواقب المشقة أو الخطر أو الهلاك بالكلية، على حسب تفاوت شدة الضلال. واتباع الهوى مع إلغاء إعمال النظر ومراجعته في النجاة يلقي بصاحبه إلى كثير من أحوال الضر بدون تحديد ولا انحصار" (٢).

ولقد بلغ الأمر بالوصف القرآني الكريم أن جعل متبع الهوى بمثابة العبد الذي جعل هواه إلها له يطيعه، وهو وصف بليغ في تجلية مدى الضلال الذي يحصل له من جراء هواه، قال سبحانه: ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً ﴾ [الجاثية:٢٣]. ويقول أيضا: ﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴾ [الفرقان:٤٣].

---

(١) جامع البيان (٥٩٢/١٩).

(٢) التحرير والتنوير (١٤١/٢٠).

وكذا الشأن بالشهوات

فهي كالقيود التي قد يتسلسل القلب بها فتثقله عن السير إلى الله، وتميل به عن سواء الصراط، وتعيقه عن المضي إلى ما تكون به نجاته وسعادته في الدارين. قال سبحانه محذرا: ﴿ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا ﴾ [النساء:٢٧]، وقال في سياق الذم والوعيد: ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴾ [مريم:٥٩] . قال القشيري: "الذين حادوا عن طريقهم، وضيّعوا حقّ الشرع، وتخطوا واجب الأمر، وزاغوا عن طريق الرشد، وأخلوا بآداب الشرع، وانخرطوا في سلك متابعة الشهوات، سيلقون عن قريب ما يستوجبونه ويعاملون بما يستحقونه" (١). وقال السعدي: "وإذا ضيعوا الصلاة التي هي عماد الدين، وميزان الإيمان والإخلاص لرب العالمين، التي هي آكد الأعمال وأفضل الخصال، كانوا لما سواها من دينهم أضيع، وله أرفض، والسبب الداعي لذلك أنهم اتبعوا شهوات أنفسهم وإراداتها فصارت هممهم منصرفة إليها، مقدمة لها على حقوق الله، فنشأ من ذلك التضييع لحقوقه، والإقبال على شهوات أنفسهم، مهما لاحت لهم حصلوها.." (٢).

- **وأما في التحذير من اتباع المتشابه، فيقول سبحانه:**

﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [آل عمران: ٧].

---

(١) لطائف الإشارات (٢/٤٣٥).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (ص٤٩٦).

قال العلامة البيضاوي: "﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ ﴾ عدول عن الحق كالمبتدعة. ﴿ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشابَهَ مِنْهُ ﴾ فيتعلقون بظاهره أو بتأويل باطل ﴿ابْتِغاءَ الْفِتْنَةِ﴾ طلب أن يفتنوا الناس عن دينهم بالتشكيك والتلبيس ومناقضة المحكم بالمتشابه. ﴿وَابْتِغاءَ تَأْوِيلِهِ﴾ وطلب أن يؤولوه على ما يشتهونه، ويحتمل أن يكون الداعي إلى الاتباع مجموع الطلبتين.." (١).

- **كما حذر القرآن في غير موضع من التفرق والاختلاف الذي ينتج عن مخالفة الهدى...**

قال تعالى ذاما حال المتفرقين: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥٩]، كما قال محذرا من أن يفعل أهل الإيمان ما فعل أهل الكتاب: ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [آل عمران: ١٠٥].

قال الإمام الطبري: "يقول جل ثناؤه: فلا تتفرقوا، يا معشر المؤمنين في دينكم تفرُّق هؤلاء في دينهم، ولا تفعلوا فعلهم، وتستنوا في دينكم بسنتهم، فيكون لكم من عذاب الله العظيم مثل الذي لهم"(٢). وقال العلامة البقاعي: "الاجتماع المأمور به إنما هو بالقلوب الجاعلة لهم كالجسد الواحد" ثم بين سوء حال السابقين في وقوع التفرق فيهم: "ولما ذمهم بالاختلاف الذي دل العقل على ذمه زاد في تقبيحه بأنهم خالفوا فيه بعد نهي العقل واضح النقل فيه.. فأرداهم ذلك الافتراق وأهلكهم"(٣).

(١) أنوار التنزيل (٦/٢).
(٢) جامع البيان (٩٢/٧).
(٣) نظم الدرر (١٣٣/٢).

المبحث الخامس

تشريع عبوديات نصرة الدين

وإقامة رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

فلقد قرر القرآن العظيم أن الدعوة إلى الله تعالى من أحسن العمل الصالح، إذ يقول سبحانه: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [فصلت:٣٣] . قال الإمام ابن القيم: " فالدعوة إِلَى الله تَعَالَى هِيَ وَظِيفَة الْمُرْسلين وأتباعهم وهم خلفاء الرُّسُل فِي أممهم وَالنَّاس تبع لَهُم وَالله سُبْحَانَهُ قد أَمر رَسُوله أَن يبلغ مَا أنزل إِلَيْهِ وَضمن لَهُ حفظه وعصمته من النَّاس وَهَكَذَا المبلغون عَنهُ من أمته لَهُم من حفظ الله وعصمته إيَّاهُم بِحَسب قيامهم بِدِينِهِ وتبليغهم لَهُم، وَقد أَمر النَّبِي ﷺ وَسلم بالتبليغ عَنهُ وَلَو آيَة، ودعا لمن بلغ عَنهُ وَلَو حَدِيثاً، وتبليغ سنته إِلَى الْأمة أفضل من تَبْلِيغ السِّهَام إِلَى نحور الْعَدو، لِأَن ذَلِك التَّبْلِيغ يَفْعَله كثير من النَّاس وَأما تَبْلِيغ السّنَن فَلَا تقوم بِهِ إِلَّا وَرَثَة الْأَنْبِيَاء وخلفاؤهم فِي أممهم جعلنَا الله تَعَالَى مِنْهُم بمنه وَكَرمه.."[1]. وقال العلامة الرازي: " قوله ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ﴾ يدل على أن الدعوة إلى الله أحسن من كل ما سواها، إذا عرفت هذا فنقول: كل ما كان أحسن الأعمال وجب أن يكون واجبا، لأن كل ما لا يكون واجبا فالواجب أحسن منه، فثبت أن كل ما كان أحسن الأعمال فهو واجب، إذا عرفت هذا فنقول الدعوة إلى الله أحسن الأعمال بمقتضى هذه الآية، وكل ما كان أحسن الأعمال فهو واجب، ثم ينتج أن الدعوة إلى الله واجبة"[2]. وقال العلامة ابن عاشور: " وفي هذه الآية منزع عظيم

(١) جلاء الأفهام (ص٤١٥).

(٢) مفاتيح الغيب (٥٦٣/٢٧).

لفضيلة علماء الدين الذين بينوا السنن ووضحوا أحكام الشريعة واجتهدوا في التوصل إلى مراد الله تعالى من دينه ومن خلقه" [١].

ومما يؤكد هذا المكانة للدعوة إلى الله تعالى –كما قررها القرآن– حتى بلغت مرتبة الوجوب: ما كان من الأمر القرآني لعباده بأن تتصدى فئة منهم لهذا الواجب الكفائي، إذا يقول جل في علاه: ﴿ وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران – ١٠٤] ، قال الإمام ابن تيمية: " وهذا الواجب واجب على مجموع الأمة، وهو فرض كفاية يسقط عن البعض بالبعض كقوله: ﴿ وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ ﴾ [آل عمران – ١٠٤] الآية"[٢].

وقال الإمام الحافظ ابن كثير: " المقصود من هذه الآية أن تكون فرقة من الأمة متصدية لهذا الشأن، وإن كان ذلك واجبا على كل فرد من الأمة بحسبه كما ثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: "من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان"[٣].

وقال العلامة ابن عطية: " قال أهل العلم: وفرض الله بهذه الآية الأمرَ بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو من فروض الكفاية؛ إذا قام به قائم سقط عن الغير"[٤]. وقال العلامة صديق حسن خان: "وفي الآية دليل على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ووجوبه ثابت بالكتاب والسنة، وهو من أعظم واجبات الشريعة المطهرة، وأصل عظيم من أصولها، وركن مشيد من أركانها، وبه

---

(١) التحرير والتنوير (٢٨٩/٢٤).

(٢) مجموع الفتاوى (٨/٢٠).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٩١/٢). والحديث أخرجه مسلم (٦٩/١) برقم (٤٩).

(٤) المحرر الوجيز (٤٨٦/١).

يكمل نظامها ويرتفع سنامها"[1]. وقال العلامة ابن عاشور: "والآية أوجبت أن تقوم طائفة من المسلمين بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا شك أن الأمر والنهي من أقسام القول والكلام، فالمكلف به هو بيان المعروف والأمر به، وبيان المنكر والنهي عنه"[2]. وقال العلامة السعدي: "هذا إرشاد من الله للمؤمنين أن يكون منهم جماعة متصدية للدعوة إلى سبيله وإرشاد الخلق إلى دينه، ويدخل في ذلك العلماء المعلمون للدين، والوعاظ الذين يدعون أهل الأديان إلى الدخول في دين الإسلام، ويدعون المنحرفين إلى الاستقامة، والمجاهدون في سبيل الله، والمتصدون لتفقد أحوال الناس وإلزامهم بالشرع كالصلوات الخمس والزكاة والصوم والحج وغير ذلك من شرائع الإسلام... وكل هذه الأمور من فروض الكفايات كما تدل عليه الآية الكريمة في قوله ﴿ وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ ﴾، أي: لتكن منكم جماعة يحصل المقصود بهم في هذه الأشياء المذكورة، ومن المعلوم المتقرر: أن الأمر بالشيء أمر به وبما لا يتم إلا به؛ فكل ما تتوقف هذه الأشياء عليه فهو مأمور به" ثم قال: " وهذه الطائفة المستعدة للدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هم خواص المؤمنين، ولهذا قال تعالى عنهم: ﴿ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾"[3].

ولقد جعل القرآن السمة الظاهرة لجمع المؤمنين والمؤمنات ما يكون في تكاتفهم وعنايتهم بأفرادهم ومجموعهم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، كما قال جل في علاه: ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة: ٧١]. كما جاء النص

(١) فتح البيان (٢/٣٠٤).
(٢) التحرير والتنوير (٤/٤١).
(٣) تيسير الكريم الرحمن (١/١٤٢).

القرآني الكريم بأن رسالة هذه الأمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كما في قوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١١٠]. فكانت الخيرية مشروطة بالقيام بهذه الرسالة، كما قال مجاهد رحمه الله عن هذه الخيرية: "على هذا الشرط: أن تأمروا بالمعروف، وتنهوا عن المنكر وتؤمنوا بالله"(١). وعن قتادة قال: ذُكر لنا أن عمر ابن الخطاب رضي الله عنه قال في حجّة حجّها ورأى من الناس رِعَةً سيئة، فقرأ هذه: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾، ثم قال: يا أيها الناس، من سره أن يكون من تلك الأمة، فليؤد شرط الله منها"(٢).

أما الجهاد في سبيل الله فقد رفع القرآن العظيم رايته، وأعلى في مقامات الفضائل درجته، وعدّه من صفات المؤمنين الصادقين، كما قال سبحانه: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ [الحجرات:١٥].

كما جعل القرآن الكريم هذا الجهاد –الذي يُدافَع به الباطل وأهله– صوراً متعددة:

– فمنه جهاد الكافرين بالسنان، جاء به الأمر القرآني ليشرّع قتال الكفرة المحاربين الذين يحادون الله ورسوله، كما قال سبحانه: ﴿ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ [التوبة:٣٦]، والآيات في شأنه كثيرة ولا تخفى.

– ومنه الجهاد بالعلم والحجة للمناوئين للإسلام بكافة فئاتهم وللمنافقين (٣)، كما قال سبحانه: ﴿ فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾ [الفرقان:٥٢].

---

(١) جامع البيان (١٠٢/٧).

(٢) جامع البيان (١٠٢/٧).

(٣) وقد ورد الحديث في المبحث السابق عن جهاد المنافقين تفصيلا.

وهو بلا ريب من الجهاد العظيم الذي يختص به أهلم العلم والحكمة، وقد تكلم عنه الإمام ابن القيم بكلام نفيس فقال: "الجِهاد نَوْعانِ جِهاد بِاليَدِ والسنان، وهَذا المشارك فِيهِ كثير. والثّانِي الجِهاد بِالحجَّةِ والبَيان وهَذا جِهاد الخاصَّة من اتِّباع الرُّسُل وهو جِهاد الأئمة وهو أفضل الجهادين لعظم منفعَته وشدَّة مُؤْنَته وكَثْرَة أعدائه قالَ تَعالى في سُورَة الفرْقان وهِي مَكِّيَّة ﴿ وَلَو شِئْنا لبعثنا في كل قَرْيَة نذيرا. فلا تطع الكافرين وجاهدهم بِهِ جهادا كَبِيرا ﴾ [الفرقان:٥١-٥٢]. فَهَذا جِهاد لَهُم بِالقُرْآنِ وهو أكبر الجهادين وهو جِهاد المُنافِقين أيضا، فَإن المُنافِقين لم يَكُونُوا يُقاتلُون المُسلمين بل كانوا معهم في الظّاهِر ورُبما كانُوا يُقاتلُون عدوهم مَعَهم ومَعَ هَذا فقد قالَ تَعالى ﴿ يا أيها النَّبِي جاهد الكفّار والمُنافِقِينَ واغْلُظْ عَلَيْهِم ﴾ [التوبة:٧٣]. وَمَعْلُوم أن جِهاد المُنافِقين بِالحجَّةِ والقُرْآن"(١).

كما حذر سبحانه في كتابه من تخلي الأمة عن هذه الشعيرة العظيمة فقال: ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ [التوبة:٢٤]. قال الإمام السمعاني: "وَهَذَا أَمر تهديد وَلَيْسَ بِأَمْر حتم وَلَا ندب وَلَا إِبَاحَة"(٢).

ولقد أثنى القرآن الكريم على أولئك الذين ينصرون الله ورسوله بكل سبيل ممكن ، فقال في معرض بيان فضل المهاجرين رضي الله عنهم وجليل ما فعلوه في سبيل الله من الهجرة والجهاد: ﴿ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ [الحشر:٨]، وحث عباده المؤمنين بأن يكونوا من أنصار الله ، كما قال سبحانه: ﴿ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ ﴾

(١) مفتاح دار السعادة (٧٠/١).

(٢) تفسير القرآن (٢٩٨/٢).

[الصف:١٤]، ، كما وعد أولئك الناصرين له بالتأييد وحسن العاقبة إذ يقول: ﴿ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ [محمد:٧].

قال الإمام الشنقيطي: "وَمَعْنى نَصْرِ المُؤْمِنِينَ لِلَّه: نَصْرُهم لِدِينِهِ ولِكِتابِهِ، وسَعْيُهم وجِهادُهم في أنْ تَكُونَ كَلِمَتُهُ هي العُلْيا، وأنْ تُقامَ حُدُودُهُ في أرْضِهِ، وتُمْتَثَلَ أوامِرُهُ وتُجْتَنَبَ نَواهِيهِ، ويُحْكَمَ في عِبادِهِ بِما أنْزَلَ عَلى رَسُولِهِ ﷺ"[1].

(١) أضواء البيان (٢٥٢/٧).

المبحث السادس

بيان الحقائق والسنن التي تقرر ارتباط حسن الحال وجميل العاقبة والمآل للأفراد والأمم بالإيمان والتقوى

فلقد قرر كتاب الله هذه الحقيقة تقريراً مؤكداً يستقر في النفس المؤمنة فلا تشك فيه طرفة عين، بأنه لا حياة طيبة بغير طاعة الله ، كما قال سبحانه: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ﴾ [النحل:٩٧].

قال العلامة ابن عطية: "ظاهَرَ هَذا الوَعْدِ أنَّهُ في الدُنْيا، والَّذِي أقُولُ: إنَّ طَيِّبَ الحَياةِ اللازِمَ لِلصّالِحِينَ إنَّما هو بِنَشاطِ نُفُوسِهِمْ ونَيْلِها وقُوَّةِ رَجائِهِمْ، والرَجاءُ لِلنَّفْسِ أمْرٌ مُلِذٌّ، فَبِهَذا تَطِيبُ حَياتُهُمْ، وبِأنَّهُمُ احْتَقَرُوا الدُنْيا فَزالَتْ هُمُومُها عنهُمْ، فَإنِ انْضافَ إلى هَذا مالٌ حَلالٌ وصِحَّةٌ، أو قَناعَةٌ فَذَلِكَ كَمالٌ، وإلّا فالطَيِّبُ فِيما ذَكَرْناهُ راتِبٌ" (١). وقال الإمام ابن القيم: "وَقَدْ فُسِّرَتِ الحَياةُ الطَّيِّبَةُ بِالقَناعَةِ والرِّضا، والرِّزْقِ الحَسَنِ وغَيْرِ ذَلِكَ، والصَّوابُ: أنَّها حَياةُ القَلْبِ ونَعِيمُهُ، وبَهْجَتُهُ وسُرُورُهُ بِالإيمانِ ومَعْرِفَةُ اللَّهِ، ومَحَبَّتُهُ، والإنابَةُ إلَيْهِ، والتَّوَكُّلُ عَلَيْهِ، فَإنَّهُ لا حَياةَ أطْيَبُ مِن حَياةِ صاحِبِها، ولا نَعِيمَ فَوْقَ نَعِيمِهِ إلّا نَعِيمَ الجَنَّةِ" (٢).

كما أن القرآن العظيم يؤكد الترابط الوثيق بين الإيمان والتقوى وبين حصول البركات الكثيرة في حياة المجتمعات والأمم ، قال سبحانه: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آَمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ [الأعراف:٩٦] . قال العلامة القاسمي: "أيْ لَوَسَّعْنا عَلَيْهِمُ الخَيْرَ، ويَسَّرْناهُ لَهم مِن كُلِّ جانِبٍ" (٣).

وفي قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ ﴾ [الأنفال:٢٤]، قال الإمام ابن

(١) المحرر الوجيز (٤١٩/٣).
(٢) مدارج السالكين (٢٤٣/٣).
(٣) محاسن التأويل (١٥٨/٥).

القيم: "الحياة النافعة إنما تحصل بالاستجابة لله ولرسوله ﷺ، فمن لم تحصل له هذه الاستجابة فلا حياة له، وإن كانت له حياة بهيمية مُشْتَرَكَة بينه وبين أرذل الحيوانات، فالحياة الحقيقية الطيبة هي حياة من استجاب لله والرسول ظاهرًا وباطنًا"، ثم قال: "ولهذا كان أكمل الناس حياة أكملهم استجابة لدعوة الرسول ﷺ، فإن كل ما دعا إليه ففيه الحياة، فمن فاته جزء منه فاته جزء من الحياة، وفيه من الحياة بحسب ما استجاب للرسول ﷺ"(١).

وفي قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ [الأنعام:٨٢]. قال العلامة ابن عاشور: "وقوله لهم الأمن أشارت اللام إلى أن الأمن مختص بهم وثابت، وهو أبلغ من أن يقال: آمنون. والمراد الأمن من عذاب الدنيا بالاستئصال ونحوه وما عذبت به الأمم الجاحدة، ومن عذاب الآخرة"(٢).

كما قرر القرآن بأن العاقبة للتقوى وللمتقين، كما قال سبحانه: ﴿ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [هود:٤٩]، وقال أيضا: ﴿ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ [طه:١٣٢]، وقال جل في علاه: ﴿ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [القصص:٨٣]، ولا غرابة فهم أهل المعية الخاصة من الله تعالى رب العالمين، قال جل في علاه: ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾[النحل:١٢٨]، ، قال الإمام الحافظ ابن كثير: "أي مَعَهُمْ بِتَأْيِيدِهِ وَنَصْرِهِ وَمَعُونَتِهِ وَهَذِهِ مَعِيَّةٌ خَاصَّةٌ"(٣).

أما في ميدان المدافعة بين الحق وأهله والباطل وزبانيته، فآيات الكتاب لا تشير إلا إلى تلك الحقيقة الراسخة بأن العاقبة لأهل الإيمان والتقوى، قال الله على لسان نبيه موسى عليه السلام: ﴿ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا

(١) الفوائد (ص٨٨).
(٢) التحرير والتنوير (٣٣٣/٧).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٦١٥/٤).

مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الأعراف:١٢٨]. كما وعد سبحانه فقال: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ [النور:٥٥]. كما أنه قال جل في علاه: ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ. إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ. وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ [الصافات:١٧١-١٧٣]، وقال سبحانه مبيناً هذه الكلمة : ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي ﴾ [المجادلة:٢١].

قال العلامة الشوكاني: " وهَذا الوَعْدُ لَهم بِالنَّصْرِ والغَلَبَةِ لا يُنافِيهِ انْهِزامُهم في بَعْضِ المَواطِنِ وغَلَبَةُ الكُفّارِ لَهم، فَإنَّ الغالِبَ في كُلِّ مَوْطِنٍ هو انْتِصارُهم عَلى الأعْداءِ وغَلَبَتُهُ لَهم، فَخَرَجَ الكَلامُ مَخْرَجَ الغالِبِ، عَلى أنَّ العاقِبَةَ المَحْمُودَةَ لَهم عَلى كُلِّ حالٍ" [(١)]. وقال العلامة الألوسي: " أيْ بِالحُجَّةِ والسَّيْفِ وما يَجْرِي مَجْراهُ أوْ بِأحَدِهِما، ويَكْفِي في الغَلَبَةِ بِما عَدا الحُجَّةِ تَحَقُّقُها لِلرُّسُلِ عَلَيْهِمُ السَّلامُ في أزْمِنَتِهِمْ غالِبًا فَقَدْ أهْلَكَ سُبْحانَهُ الكَثِيرَ مِن أعْدائِهِمْ بِأنْواعِ العَذابِ كَقَوْمِ نُوحٍ وقَوْمِ صالِحٍ وقَوْمِ لُوطٍ وغَيْرِهِمْ، والحَرْبُ بَيْنَ نَبِيِّنا ﷺ وبَيْنَ المُشْرِكِينَ وإنْ كانَ سِجالًا إلّا أنَّ العاقِبَةَ كانَتْ لَهُ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ وكَذا لِأتْباعِهِمْ بَعْدَهم لَكِنْ إذا كانَ جِهادُهم لِأعْداءِ الدِّينِ عَلى نَحْوِ جِهادِ الرُّسُلِ لَهم بِأنْ يَكُونَ خالِصًا لِلَّهِ عَزَّ وجَلَّ لا لِطَلَبِ مُلْكٍ وسَلْطَنَةٍ وأغْراضٍ دُنْيَوِيَّةٍ فَلا تَكادُ تَجِدُ مُجاهِدًا كَذَلِكَ إلّا مَنصُورًا غالِبًا" [(٢)].

(١) فتح القدير (٤/٤٧٧).

(٢) روح المعاني (١٤/٢٢٨).

المبحث السابع

تعظيم واجب أهل العلم المبلغين عن الله ورسوله، وتحذيرهم من كتمان الحق أو لبسه بباطل

واجب العلماء في تبليغ دين الله تعالى

لا ريب بأن لأهل العلم دور فائق الأهمية في العمل على حفظ الدين، فهم ورثة الأنبياء، وهم المبلغون عن الله ورسوله ﷺ ، وإليهم يرجع الناس في معرفة ما التبس عليهم من أمر دينهم وما جهلوه، ولذا فالمعوّل عليهم كبير، ومغبة تخاذلهم أو انحرافهم على دين الناس خطير. والله جل جلاله يقول: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ ﴾ [آل عمران:١٨٧]. قال العلامة ابن عطية: " وقال جمهور من العلماء: الآية عامة في كل من علمه الله علما، وعلماء هذه الأمة داخلون في هذا الميثاق" (١). وقال العلامة القرطبي: "قال الحسن وقتادة: هي في كل من أوتي علم شيء من الكتاب. فمن علم شيئا فليعلمه، وإياكم وكتمان العلم فإنه هلكة. وقال محمد بن كعب: لا يحل لعالم أن يسكت على علمه، ولا للجاهل أن يسكت على جهله" (٢). وقال الإمام ابن تيمية: "فالمرصدون للعلم عليهم للأمة حفظ علم الدين وتبليغه، فإذا لم يبلغوهم علم الدين أو ضيعوا حفظه كان ذلك من أعظم الظلم للمسلمين ... وكذلك كذبهم في العلم من أعظم الظلم.. فترك أهل العلم لتبليغ الدين كترك أهل القتال للجهاد، وترك أهل القتال للقتال الواجب عليهم كترك أهل العلم للتبليغ الواجب عليهم، كلاهما ذنب عظيم" (٣). وقال العلامة محمد رشيد رضا: " بين الله تعالى لرسوله ﷺ وللمؤمنين أنه أخذ الميثاق على أهل الكتاب من اليهود والنصارى من قبل،

---

(١) المحرر الوجيز (٥٥١/١).

(٢) جامع الأحكام (٣٠٤/٤).

(٣) مجموع الفتاوى (١٨٧/٢٨).

كما أخذه على هذه الأمة الآن، وأنهم نقضوا ميثاقه، وأضاعوا حظا عظيما مما أوحاه تعالى إليهم، ولم يقيموا ما حفظوه منه. وهذا البيان من دلائل نبوته ﷺ التي هي من معجزات القرآن الكثيرة " [1].

تحذير القرآن الكريم أهل العلم أن يكتموا الحق أو يبلسوه بباطل

يقول الله جل وعلا في شأن أهل الكتاب: ﴿وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ . وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة:٤١-٤٢]. وهذه الآية الكريمة، وإن كانت في الأصل تخاطب أهل الكتاب، لكنها تشمل في خطابها أهل العلم الذين يمكن أن يفعلوا شيئاً من جنس ما فعله أولئك. قال الإمام ابن تيمية: "فقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ﴾ [البقرة : ٤٢] نهي عنهما، والثاني لازم للأول مقصود بالنهي، فمن لبس الحق بالباطل كتم الحق وهو معاقب علي لبسه الحق بالباطل وعلى كتمانه الحق"[2]. وقال الإمام الحافظ ابن كثير: "وفي هذا تحذير للعلماء أن يسلكوا مسلكهم فيصيبهم ما أصابهم، ويسلك بهم مسلكهم، فعلى العلماء أن يبذلوا ما بأيديهم من العلم النافع، الدال على العمل الصالح، ولا يكتموا منه شيئا" [3].

أما العلامة الشوكاني فبعد كلام له طويل في مناسبات الآيات بعضها لبعض عند قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ﴾، قال: "وهذه الآية وإن كانت خطابا لبني إسرائيل ونهيا لهم، فهي متناولة لهذه الأمة بفحوى الخطاب أو بلحنه، فمن أخذ من المسلمين رشوة على إبطال حق أمر الله به، أو إثبات باطل نهى الله عنه، أو امتنع من تعليم ما علمه الله، وكتم البيان الذي أخذ الله عليه

(١) تفسير المنار (٦/٢٥٠).
(٢) درء التعارض (١/١٢٠).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٢/١٨١).

ميثاقه به، فقد اشترى بآيات الله ثمنا قليلا " [1]. وقال العلامة ابن بدران: "وهذا الخطاب وإن كان واردًا في بني إسرائيل، فهو تنبيه لسائر الخلق وتحذير من مثله، فصار الخطاب وإن كان خاصًا في الصورة لكنه عام في المعنى، وأنت ترى كثيرًا من الذين يروجون مقاصدهم يؤولون الأدلة، ويحيلونها إلى وجه بعيد، ويكتمون الحق ويسترونه بالباطل، حتى إذا كانت الأدلة لهم، قاموا في تأييدها ونصرتها، وإن كانت عليهم حرفوها وبدلوها، ونبذوها وراء ظهورهم، فكتموا الحق تارة، وَلبسوه بالباطل تارة ثانية"[2].

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ [البقرة:١٥٩]. وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة:١٧٤]. إيضاح قرآني جلي لمدى ما يمثله كتمان أهل العلم للهدى الذي علموه من خطر على دينهم، وهم قد يتعرضون من جرّاء هذا للّعن والعذاب الأليم. قال الزمخشري: " وكفى به دليلا على أنه مأخوذ على العلماء أن يبينوا الحق للناس وما علموه وأن لا يكتموا منه شيئا لغرض فاسد من تسهيل على الظلمة، وتطيب لنفوسهم. واستجلاب لمسارّهم، أو لجرّ منفعة وحطام دنيا، أو لتقية: مما لا دليل عليه ولا أمارة، أو لبخل بالعلم"[3]. وقال العلامة القاسمي: "قال بعض المفسرين: ثمرة الآية وجوب إظهار الحق وتحريم كتمانه، فيدخل فيه بيان الدين والأحكام والفتاوى والشهادات وغير ذلك مما يجب إظهاره. وقد تقدم هذا، وإن المراد بذلك إذا لم يؤد إلى مفسدة" [4].

---

(١) فتح القدير (٨٨/١).

(٢) جواهر الأفكار (ص١٩٣).

(٣) الكشاف (٤٥٠/١).

(٤) محاسن التأويل (٤٧٦/٢).

وفي قول الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ [المائدة:٦٧]. خطاب لنبيه ﷺ في واجب البلاغ، ولأهل العلم من بعده الذين ورثوا هذا العلم وتحملوا أمانته ، وإن اللافت في الآية الكريمة بيانها بأن تعتبر التواني عن إبلاغ شيء مما أنزله الله في حكم التفريط في مبدأ البلاغ من أصله. قال الإمام الطبري: "وأعلمه تعالى ذكره أنه إن قصَّر عن إبلاغ شيء مما أنزل إليه إليهم، فهو في تركه تبليغ ذلك –وإن قلّ ما لم يبلّغ منه– فهو في عظيم ما ركب بذلك من الذَّنب بمنزلته لو لم يبلِّغ من تنزيله شيئًا" (١). وقال العلامة ابن عطية: "هذه الآية أمر من الله ورسوله بالتبليغ على الاستيفاء والكمال، لأنه قد كان بلغ، فإنما أمر في هذه الآية بأن لا يتوقف عن شيء مخافة أحد، وذلك أن رسالته ﷺ تضمنت الطعن على أنواع الكفرة وبيان فساد حالهم فكان يلقى منهم عنتا وربما خافهم أحيانا قبل نزول هذه الآية، فقال الله له: ﴿ بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ﴾ أي: كاملًا متمما، ثم توعده تعالى بقوله: ﴿ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَما بَلَّغْتَ رِسالَتَهُ ﴾ أي: إنك إن تركت شيئا فكأنما قد تركت الكل.." (٢).

* *

(١) جامع البيان (٤٧٦/١٠).

(٢) المحرر الوجيز (٢١٨/٢).

خاتمة البحث

بعد إتمام ما يسره الله تعالى من التتبع والاستقراء لنصوص القرآن العظيم فيما سبق من البحث –وهو جهل المقلّ– فإنه يمكن الخلوص إلى ما استهدفه هذه البحث في تجلية مدى ما اعتنى به كتاب الله تعالى في سبيل تحقيق المقصد الأعظم –من المقاصد الضرورية للشريعة الإسلامية الغراء– ألا وهو مقصد حفظ الدين. وفيما يأتي بيان لأهم النتائج العلمية التي يسجّلها هذا البحث تأسيساً على ما سبق من مقدمته وتمهيده ومباحثه السبعة.

نتائج البحث:

- حفظ الدين من أعظم المقاصد الكبرى والمصالح الضرورية الخمسة التي جاءت الشريعة الغراء بتحقيقها، وهو المقصد عليها جميعاً.
- اعتنى القرآن العظيم بتقرير أهمية حفظ الدين، عما اعتنى –بدرجة فائقة– بتحقيق هذا المقصد من خلال توجيهه وأمره ونهيه وبيانه وسائر هداياته.
- يمكن التعبير عن معالم عناية القرآن الكريم بتحقيق مقصد حفظ الدين من خلال سبعة عناوين، هي كما يأتي:

١. تقرير القرآن بأنَّ الدين عند الله الإسلام وأنه دين التوحيد الذي جاء به سائر الرسل عليهم السلام.
٢. ترسيخ الولاء لله ورسوله والمؤمنين والبراء مما سوى ذلك من مناهج الكفر كلها.
٣. تحذير المؤمنين من خطر المنافقين وتعميق الوعي بأساليب كيدهم والحث على جهادهم بالعلم والبيان.
٤. الأمر بالاتباع والتسليم والتحاكم إلى الوحي المطهر والتحذير من التفرق والابتداع ومفارقة جماعة المسلمين.
٥. تشريع عبوديات نصرة الدين وإقامة رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٦. بيان الحقائق والسنن التي تقرر ارتباط حسن الحال وجميل العاقبة والمآل للأفراد والأمم بالإيمان والتقوى.

٧. تعظيم واجب أهل العلم المبلغين عن الله ورسوله، وتحذيرهم من كتمان الحق أو لبسه بباطل.

أسأل الله جل في علاه أن يكتبنا من المستمسكين بهدي القرآن العظيم، العاملين على حفظ هذا الدين، الباذلين في سبيل ذلك الغالي والثمين، وأن يهبنا علماً نافعاً وعملاً صالحاً يرضيه عنا، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

ثبت المراجع

١. أحكام القرآن- لأحمد بن علي أبو بكر الرازي الجصاص الحنفي (المتوفى: ٣٧٠هـ) - تحقيق عبد السلام محمد علي شاهين - دار الكتب العلمية بيروت - لبنان -الطبعة: الأولى، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م.

٢. أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن - محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي (ت١٣٩٣هـ) دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت - الطبعة بدون - ١٤١٥هـ.

٣. أنوار التنزيل وأسرار التأويل- ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي (ت ٦٨٥هـ) تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي - دار إحياء التراث العربي - بيروت -الطبعة الأولى - ١٤١٨ هـ.

٤. البحر المحيط في التفسير - المؤلف: أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي (المتوفى: ٧٤٥هـ)، المحقق: صدقي محمد جميل، الناشر: دار الفكر - بيروت، الطبعة: ١٤٢٠ هـ.

٥. بدائع الفوائد - محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله ابن قيم الجوزية (ت٧٥١هـ) دار الكتب العلمية - بيروت - الطبع بدون.

٦. بصائر ذوى التمييز في لطائف الكتاب العزيز - مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز أبادي (ت٨١٧هـ) تحقيق : محمد علي النجار - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - لجنة إحياء التراث الإسلامي - القاهرة الطبعة بدون - ١٤١٦هـ.

٧. تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار) - المؤلف: محمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين بن محمد بهاء الدين بن منلا علي خليفة القلموني الحسيني (المتوفى: ١٣٥٤هـ)، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة النشر: ١٩٩٠ م عدد الأجزاء: ١٢ جزءا.

٨. تفسير القرآن العظيم- عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمرو البصري ثم الدمشقي (ت٧٧٤هـ) تحقيق : سامي بن محمد سلامة - دار طيبة للنشر والتوزيع - الطبعة الثانية ١٤٢٠هـ.
٩. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان - عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي (ت١٣٧٦هـ) تحقيق عبدالرحمن بن معلا اللويحق - مؤسسة الرسالة - الطبعة الأولى١٤٢٠هـ.
١٠. جامع البيان في تأويل القرآن - أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن غالب الطبري (ت٣١٠هـ) تحقيق: أحمد محمد شاكر- مؤسسة الرسالة- الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ.
١١. الجامع لأحكام القرآن - أبو عبدالله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي الأندلسي ثم القرطبي (ت٦٧١هـ) تحقيق : أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش - دار الكتب المصرية - القاهرة - الطبعة الثانية ١٣٨٤هـ.
١٢. جلاء الأفهام في فضل الصلاة على محمد خير الأنام - المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)، المحقق: شعيب الأرناؤوط - عبد القادر الأرناؤوط، الناشر: دار العروبة - الكويت، الطبعة: الثانية، ١٤٠٧ - ١٩٨٧، عدد الأجزاء: ١ .
١٣. الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح - المؤلف: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (المتوفى: ٧٢٨هـ)، تحقيق: علي بن حسن- عبد العزيز بن إبراهيم - حمدان بن محمد، الناشر: دار العاصمة، السعودية، الطبعة: الثانية، ١٤١٩هـ / ١٩٩٩م، عدد الأجزاء: ٦ .

١٤. جواهر الأفكار ومعادن الأسرار المستخرجة من كلام العزيز الجبار – المؤلف: عبد القادر بن أحمد بدران، المحقق: زهير الشاويش، الناشر: المكتب الإسلامي، بيروت– لبنان، الطبعة: الأولى ١٤٢٠ هـ – ١٩٩١م، عدد الصفحات: ٥٢٩.

١٥. حاشية الشهاب على تفْسير البيضاوِي، الْمسمّاة: عناية القاضي وكفاية الراضي على تفسير البيضاوي – المؤلف: شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي المصري الحنفي (المتوفى: ١٠٦٩هـ)، دار النشر: دار صادر – بيروت، عدد الأجزاء: ٨ .

١٦. درء تعارض العقل والنقل – تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني أبو العباس (ت٧٢٨هـ) تحقيق : الدكتور محمد رشاد سالم – جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية – المملكة العربية السعودية – الطبعة الثانية ١٤١١هـ.

١٧. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني – شهاب الدين محمود ابن عبد الله الحسيني الألوسي (ت١٢٧٠هـ) – تحقيق : علي عبد الباري عطية – دار الكتب العلمية – بيروت – الطبعة بدون ١٤١٥هـ.

١٨. زاد المسير في علم التفسير – المؤلف: جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن ابن علي بن محمد الجوزي (المتوفى: ٥٩٧هـ)، الناشر: المكتب الإسلامي – بيروت الطبعة الثالثة، ١٤٠٤، عدد الأجزاء: ٩.

١٩. العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير – المؤلف: محمد الأمين ابن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي (المتوفى: ١٣٩٣هـ)، المحقق: خالد بن عثمان السبت، إشراف: بكر بن عبد الله أبو زيد، الناشر: دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع، مكة المكرمة، الطبعة: الثانية، ١٤٢٦ هـ، عدد الأجزاء: ٥ .

٢٠. علم المقاصد الشرعية – المؤلف: نور الدين بن مختار الخادمي، الناشر: مكتبة العبيكان، الطبعة: الأولى ١٤٢١هـ- ٢٠٠١م.، عدد الأجزاء: ١.
٢١. الفتاوى الكبرى – تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (ت٧٢٨هـ) دار الكتب العلمية – بيروت – الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ.
٢٢. فتحُ البيان في مقاصد القرآن – المؤلف: أبو الطيب محمد صديق خان بن حسن بن علي ابن لطف الله الحسيني البخاري القِنَّوجي (المتوفى: ١٣٠٧هـ)، عني بطبعهِ وقدّم له وراجعه: خادم العلم عَبد الله بن إبراهيم الأنصَاري، الناشر: المَكتبة العصريَّة للطبَاعة والنّشْر، صَيدَا – بَيروت، عام النشر: ١٤١٢ هـ – ١٩٩٢ م، عدد الأجزاء: ١٥ .
٢٣. فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير – محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني (ت١٢٥٠) دار ابن كثير – دار الكلم الطيب دمشق – بيروت الطبعة الأولى ١٤١٤هـ.
٢٤. الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل – أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد الزمخشري جار الله (ت ٥٣٨هـ) دار الكتاب العربي – بيروت – الطبعة الثالثة – ١٤٠٧ هـ.
٢٥. لطائف الإشارات = تفسير القشيري – المؤلف: عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري (المتوفى: ٤٦٥هـ)، المحقق: إبراهيم البسيوني، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب – مصر، الطبعة: الثالثة .
٢٦. مجموع رسائل الحافظ ابن رجب الحنبلي – المؤلف: زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن، السَلامي، البغدادي، ثم الدمشقي، الحنبلي (المتوفى: ٧٩٥هـ)، المحقق: أبو مصعب طلعت بن فؤاد الحلواني، الناشر: الفاروق الحديثة للطباعة والنشر، الطبعة: جـ ١، ٢/ الثانية، ١٤٢٤ هـ –

٢٠٠٣ م، جـ ٣/ الأولى، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م، جـ ٤/ الأولى، ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤، عدد الأجزاء: ٤.

٢٧. محاسن التأويل ، محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق القاسمي (ت ١٣٣٢هـ) تحقيق : محمد باسل عيون السود - دار الكتب العلميه - بيروت - الأولى - ١٤١٨هـ.

٢٨. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز - أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي (ت٥٤٢هـ) تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد - دار الكتب العلمية - بيروت - الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ.

٢٩. مذكرة في أصول الفقه - المؤلف: محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي (المتوفى: ١٣٩٣هـ)، الناشر: مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، الطبعة: الخامسة، ٢٠٠١ م، عدد الأجزاء: ١ .

٣٠. المستصفى في علم الأصول - المؤلف : أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (المتوفى: ٥٠٥هـ)، المحقق : محمد بن سليمان الأشقر، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، الطبعة : الأولى، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م .

٣١. المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم (صحيح مسلم) - المؤلف: مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (المتوفى: ٢٦١هـ)، المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت، عدد الأجزاء: ٥.

٣٢. المصباح المنير في غريب الشرح الكبير - المؤلف: أحمد بن محمد بن علي الفيومي ثم الحموي، أبو العباس (المتوفى: نحو ٧٧٠هـ)، الناشر: المكتبة العلمية - بيروت، عدد الأجزاء: ٢.

٣٣. مفاتيح الغيب من القرآن الكريم – أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين (ت٦٠٦هـ) نسخة إلكترونية موافقة لترقيم الشاملة – ٣.٤٧.

٣٤. مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة – المؤلف: أبو عبد الله محمد ابن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية (٦٩١ هـ – ٧٥١ هـ)، المحقق: عبد الرحمن بن حسن بن قائد (وفق المنهج المعتمد من بكر بن عبد الله أبو زيد – رحمه الله –)، راجعه: مُحَمَّدْ أَجْمَل الإصْلاحِي، سليمان بن عبد الله العمير، الناشر: دار عالم الفوائد، مكة المكرمة، الطبعة: الأولى، ١٤٣٢ هـ، عدد الأجزاء: ٥.

٣٥. مقاصد الشريعة الإسلامية – المؤلف: محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفى: ١٣٩٣هـ)، المحقق: محمد الحبيب ابن الخوجة، الناشر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، عام النشر: ١٤٢٥ هـ – ٢٠٠٤ م، عدد الأجزاء: ٣ .

٣٦. مقاصد الشريعة الإسلامية وعلاقتها بالأدلة الشرعية – المؤلف: محمد سعد بن أحمد بن مسعود اليوبي، الناشر: دار الهجرة، سنة النشر: ١٤١٨ – ١٩٩٨، عدد المجلدات: ١ .

٣٧. منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية – تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني أبو العباس (ت٧٢٨هـ) تحقيق : محمد رشاد سالم – جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية – الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ.

٣٨. موسوعة المفاهيم الإسلامية العامة – المؤلف: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – مصر، عدد الأجزاء: ١ .

٣٩. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور – المؤلف: إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي (المتوفى: ٨٨٥هـ)، دار النشر: دار الكتب العلمية – بيروت – ١٤١٥ هـ – ١٩٩٥م، عدد الأجزاء/ ٨، تحقيق: عبد الرزاق غالب المهدي.

٤٠. هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى – المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)، المحقق: محمد أحمد الحاج، الناشر: دار القلم- دار الشامية، جدة – السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٦هـ – ١٩٩٦م، عدد الأجزاء: ١ .

٤١. الموافقات – المؤلف: إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي (المتوفى: ٧٩٠هـ)، المحقق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، الناشر: دار ابن عفان، الطبعة: الطبعة الأولى ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م، عدد الأجزاء: ٧ .

* * *